

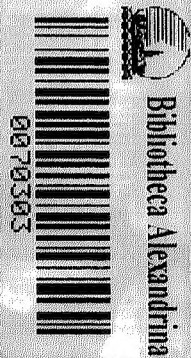
الدكتور/ يوسف خليل

الحب المثالي عند العرب



دار نشر النهضة والنشر والتوزيع

طبعة ٢٠٠٤



Bibliotheca Alexandrina

0070303

89

الحب المثالي عند العرب

دار تباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبدالله غوييب

المركز الرئيسي والمطابع : مخبئة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت : ١٥/٣٦٧٧٧٧

الإدارة : ٥٨ شارع المحجل - صارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦ لمبنى إداري

ت ف : ٧٤٧٤٠٣٨

رغم الإبداع : ١٧/٤٦٨٩

التراقيم الدولي : I. S. B. N.

977-5810-08-6

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يخطيء من يظن أن الحب العذرى ظاهرة انفردت بها البادية العربية في العصر الأموي وحده، أو أنه لون من ألوان الحب اختصت بها قبيلة عذرة من بين القبائل العربية كلها. فإن من ينتبج الشعر العربي منذ أقدم عصوره يلاحظ أن هذا اللون من الحب قديم قَدَمَ هذا الشعر، وأن جذور هذا الحب تمتد إلى العصر الجاهلي . فقد عرف المجتمع الجاهلي طائفة من الشعراء العشاق أطلق عليهم الرواة اسم "المتيمين"، وربطوا بين كل واحد منهم وصاحبة له، عُرِفَ بها، وعاش لها، ومات من أجلها، ووهب حياته وفنه لحبها. ولم تكن حياة هؤلاء المتيمين وشعرهم سوى صورة مماثلة أشد المماثلة لحياة العذريين الأمويين وشعرهم، بحيث يستحيل القول بأن هذا الحب لم يظهر إلا في أيام بني أمية. فالحياة الأموية لم تكن هي التي خلقت هذا الحب من عَدَم، أو أوجدته لأول مرة في تاريخ العرب، ولكنها البادية العربية منذ أقدم عصورها هي التي خلقت وأوجدته، ثم كانت الحياة الأموية هي التي بعثته وجددته، ونفخت فيه من روحها فعاد خلقاً جديداً كما خلقتها البادية القديمة أول مرة، ثم مضت تطبعه بطوابعها الإسلامية الجديدة، فاكتملت له سِمَاتُه المميّزة، واستقرت تقاليدُه ومقوماتُه التي اكتسب معها صورته الأخيرة وشكله النهائي الثابت فالحب العذرى ليس حباً أموياً، ولا حباً انفردت به عذرة وحدها، ولكنه حب البادية العربية

فى جميع عصورها. فهو نبت صحراوى أصيل، عرفته البادية العربية منذ أقدم عصورها، وظلت ترعاه، وتمد له الأسباب، حتى نما وازدهر فى ظل بنى أمية.

هذه هى الفكرة الأساسية التى أحاول فى هذه الصفحات أن أعرضها، محاولاً إزالة وهم مستقر فى أذهان كثير من الباحثين فى الأدب العربى، وتصحيح خطأ شائع فى أبحاثنا الأدبية، وهو أن الحب العذرى ظاهرة أموية خالصة مُنبَتة الصلة تماماً عما قبلها.

ومنذ البداية لست مع الذين يذهبون إلى أن هذا الحب دخلته الأسطورة وتعمقته حتى أحالته نتاجاً أسطورياً خالصاً، أو مجموعة من الأقاصيص نسجتها مُخَيِّلة الرواة، وصاغتْها أخيلة السُّمار. فهذا وهم آخر يُغفل طبيعة البيئة التى ظهر فيها هذا الحب، وطبيعة الحياة الاجتماعية التى خلقتْه، وما تتطوى عليه من تقاليد ومُثل وقيم إختصت بها، ويجعل مقياسه للحكم على الظواهر الاجتماعية القديمة حياتنا الحضرية الحديثة التى تختلف تمام الاختلاف عن الحياة البدوية القديمة التى خلقت هذا الحب ورعته.

ولست مع ذلك - أدعى أن كل ما وصل إلينا من أخبار هذا الحب صحيح لا شك فيه، ولا أنكر أن قِطْراً غير قليل من الأسطورة والخيال دخل هذه الأخبار، تزيدياً فى العلم والرواية، وتلبية لحاجات السمر

والإمتاع، واستتارة للتشويق والتطلع، وطلباً للإغراب والإعجاب، ولكن الذى أنكره أشد الإنكار أن تكون الأسطورة قد تعمقت أخبار هذا الحب حتى أحالتها تلك الإحالة المنكرة الغريبة التى أراها- فى وضعها الدقيق- اندفاعاً خلف مذهب الشك فى كل ما يتصل بترائنا الأدبى القديم، ومبالغة فى الاطمئنان إليه، وتطرفاً فى الأخذ به، وهو مذهب أرى- إنصافاً لهذا التراث الذى يمثل جزءاً من تاريخنا العريق- أن نأخذ به فى شئ غير قليل من الحذر والأناة.

فالإطار العام الذى دارت فيه أحداث قصة الحب العذرى فى فصلها الجاهلى والأموى إطار سليم لم تمسه أيدى الرواة، ولم تعبت بها أخيلتهم، وإنما دخل العبت والتزيد والخيال فى التفاصيل والحواشى، وحسبنا هذا الإطار السليم مادة صالحة، وكافية أيضاً، للبحث والدراسة.

وكذلك الشأن فى الشعر الذى حملته إلينا هذا القصة، فإن اختلاط نسبته إلى أصحابه لا يدفعنا إلى رفضه وإهماله، أو إلى اتهامه والشك فيه، لأنه- فى مجموعه- تعبير صادق عن هذه القصة. وهو- على كل حال- نتاج لمجموعة من الشعراء تشابهت حياتهم فتشابه فنهم ...

د . يوسف خليف

فى عالم الحب ودنيا العاطفة صورتان طبيعيتان من صور الحب:

حب حسى يفتن فيه الرجل بالمرأة من حيث هى أنثى تحقق له المتعة واللهو وإرضاء الحواس، فتنة تدفعه إلى طلب الجنس الآخر فى عمومته، لأنه يرى فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهوه وإرضاء حواسه، فالمرأة عنده ليست غاية للحب ولكنها وسيلة إليه، وهو - لهذا - لا يقف حبه عند واحدة يهب لها قلبه وحبه وإخلاصه ووفاءه، ولكنه ينتقل من واحدة إلى واحدة كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة طلباً للعطر والريح، فهو دائماً ظامئ كلما رويت نفسه من كأس عاوده الظما إلى كأس أخرى، وهو فى كل مرة لا يطلب من الكأس إلا أن تروى ظمأه، وتبلى صداه، وتطفئ ناره، فالكأس نفسها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من شراب.

وحب روحى يتعلق فيه العاشق بمحبة واحدة، يرى فيها مثله الأعلى الذى يحقق له متعة الروح، ورضا النفس، واستقرار العاطفة، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله، وتتحقق فيها كل أمانيه، فهو الهدف الذى يطلبه، والغاية التى يسعى إليها، والأمل الذى يرتجيه، والمعبود الذى يقضى عمره فى محراب حبه، يوقد له الشموع، ويحرق البخور، مثله مثل الفراشة التى تتهافت على النور ولا تزال تحوم حوله

حتى تحترق بناره، فالمحبة عنده هي الكأس التي يقضى حياته ظامئاً إليها لا يعدوها إلى غيرها، ولا يتجاوزها إلى سواها، لأنه لا يطلب الرى فى أى كأس، ولكنه يطلبه فى كأس بعينها هي تلك التي تعجبه وترضيه.

وقد عرف العرب منذ أقدم عصورهم هاتين الصورتين من صور الحب، كما عرفتهما سائر الشعوب، وعملت ظروف البيئة والحضارة والمزاج وما اصطلحت عليه حياتهم الاجتماعية من مثل وتقاليد على تلوينها بألوانها الخاصة، وطبعهما بطواعها المميّزة.

وحوالى منتصف القرن الأول للهجرة، بعد أن استقام الأمر لبنى أمية، واستقرت لهم دولتهم الجديدة، تميّزت الصورة الأخيرة من هاتين الصورتين بسمات معينة، واتخذت لها طابعاً خاصاً، اكتسبت معها ومعه اسماً جديداً، فُعرفت باسم "الحب العذرى" نسبة إلى قبيلة بنى عذرة. وفى أرجاء البادية العربية ظهر عشاق عُدّوا النماذج الصحيحة لهذا الحب، والمثل العليا له، بكل سماته المميّزة، وطواعه الخاصة، فأطلق عليهم اسم "العذريين" نسبة إلى هذا اللون من ألوان الحب.

وبنو عذرة بطن من قُضاة التي يصل نسبها إلى حمير اليمنية أو معدّ العنانية، على اختلاف بين النسابين فى ذلك.

وكان بنو عذرة ينزلون فى البادية العربية شمالى الحجاز فى منطقة وادى القُرى وتبوك إلى أيلة على البحر الأحمر، وهى منطقة على حظ غير قليل من الخصب والاستقرار يَسْرته لها بينتها الطبيعية من ناحية، ووقوعها على الطريق التجارى إلى الشام ومصر من ناحية أخرى.

ومنذ العصر الجاهلى اشتهرت هذه القبيلة بالقوة والمنعة والشرف، وظهر فيها سادة احتفظ تاريخ العرب بأسمائهم فى صفحاته الخالدة، فكان منهم رزّاح بن ربيعة الذى استنجد به قُصيّ جد النبى صلى الله عليه وسلم - وكان أخاه لأمه - فى حربه مع خُزاعة، فأنجده وأعانه حتى أجلاها عن مكة، وغلبها على البيت الحرام، فتولت قريش سدائته. وكان أحد ساداتهم - هُوذة بن عمرو - يقال له "رب الحجاز" اعترافاً بمكانته ومنزلته بين العرب، وقد مدحه النابغة الذبياني بإحدى قصائده. وقد استطاع بعض بطونها - بنو حُنّ - أن يهزموا جيش النعمان بن المنذر الذى بعث به ليغزوهم، وذلك بعد أن انضم إليهم بنو ذبيان استجابة لنصيحة شاعرهم الكبير النابغة الذى حاول جاهداً أن يحول بين النعمان وغزوهم، وفى شعر النابغة مدح لهم، وثناء عليهم، وتسجيل لهذا النصر الذى أحرزوه على جيش النعمان، يصفهم فيه بأنهم "منعوا وادى القُرى من عدوهم".

وفى السنة السابعة للهجرة تم دخولهم فى الإسلام، ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم سيدهم حمزة بن النعمان بن هُوذة بصداقات قومه، فأقطعهم رسول الله رمية سوطه من وادى القرى. ثم توالى مشاركتهم فى غزوات الرسول وفى الفتوح الإسلامية بعد ذلك، فاشتركوا فى السنة التالية لإسلامهم فى قتال الروم فى مؤتة، وكان أحد ساداتهم - قُطَيْبَةُ بن قَتَادَة - على ميمنة الجيش، وفى حرب القادسية تولى أحد أبطالهم - خالد بن عَرَفْطَة - الميمنة أيضاً، ولآه إياها البطل العربى الكبير سعد ابن أبى وقَّاص.

عُرِفَت هذه القبيلة فى أيام بنى أمية بهذا اللون من الحب، ونُسِبَ إليها، واشتهرت به وبكثرة عشاقها المتييمين الصادقين فى حبهم، المخلصين لمحبياتهم، الذين يستبد بهم الحب، ويشد بهم الوجد، ويسيطر عليهم الحرمان، حتى يصل بهم إلى درجة من الضنى والهزال كانت تُفْضَى بهم فى أكثر الأحيان إلى الموت، دون أن يغيّر هذا كله من قوة عواطفهم وثباتها، أو يضعف من إخلاصهم ووفائهم، أو يدفعهم إلى السلو والنسيان. وقديماً قال رجل منهم: "لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داء إلا الحب"، وسئل آخر: "ممن أنت؟" فقال: "من قوم إذا أحبوا ماتوا"، فقالت جارية سمعته: "عذرى ورب الكعبة".

وليس من اليسير أن نحدد تماماً الأسباب التي جعلت هذه القبيلة تشتهر بهذا اللون من الحب حتى ليصبح ظاهرة اجتماعية تُعرف بها وتُنسب إليها، وإن يكن القدماء قد حاولوا ردّ هذا إلى رقة قلوبهم وجمال نسائهم، وقد سئل أعرابيّ منهم: "ما بال قلوبكم كأنهم قلوب طير تنمات كما ينمات الملح؟ أما تجلّدون؟" فقال: "إنّا لننظر إلى محاجر أعين لا تتظرون إليها"، وقيل لآخر: "يا هذا بحق أقول إنكم أرقّ الناس قلوباً"، ويقول ابن قتيبة: "والجمال فى عذرة والعشق كثير".

ولكن هذه المحاولات تبدو غير كافية تماماً لتعليل هذه الظاهرة، إذ تظل معها الأسئلة واردة: هل كانت عذرة حقاً أرقّ العرب قلوباً وأجملها نساء؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يدعى أنها امتازت من بين جميع القبائل العربية بالرقة والجمال؟ وإذا صحّ هذا الادّعاء فكيف نعلل لظهور هذا الحب فى غيرها من القبائل؟

من المهم أن نلاحظ أولاً أن عذرة لم تتفرد وحدها من بين القبائل العربية بهذا اللون من الحب، وإنما ظهر أيضاً فى غيرها من القبائل كقبيلة بنى عامر حيث ظهر مجنون ليلى قيس بن الملوّح، وقبيلة بنى كنانة حيث ظهر قيس بن ذريح صاحب لبنى. فالمسألة ليست مسألة عذرة وحدها، والحب العذرى ليس وفقاً عليها دون غيرها من القبائل، ولكنه لون من

الحب عرفته البادية العربية مع غيره من ألوان الحب المختلفة اختلافاً
مرده الأساسى إلى المزاج الشخصى الذى يدفع بعض الناس إلى اللهو
والمجون والشرك فى الحب، كما يدفع بعضهم إلى الوفاء والإخلاص
والتوحيد فيه، ثم إلى طبيعة الظروف التى تحيط بالعاشق تدفعه إلى اللهو
والعبت أم ترده إلى الطهر والعفاف؟

فالمسألة ليست مسألة عذرة وحدها، ولكنها مسألة المجتمع البدوى
العربى فى مجموعه، وهذا اللون من الحب هو التعبير العاطفى الطبيعى
فى هذا المجتمع، حيث تسيطر تقاليد خاصة ومثل معينة على الحياة
الاجتماعية فيه ، فتخلق هذا اللون المتميز من ألوان الحب الروحى.

بهذا الخروج بالمسألة من النطاق الضيق الذى تدور فيه نستطيع أن
نفهم هذه الظاهرة الفهم الصحيح، ونضع الحب العذرى فى موضعه
الطبيعى. فالمسألة ليست مسألة أن " الجمال فى عذرة كثير "، أو أن قلوب
أبنائها " كقلوب الطير تنمات كما ينمات الملح"، ولكنها مسألة مجتمع البادية
العربية بتقاليده ومثله المسيطرة عليه، فى عذرة وفى غير عذرة من تلك
القبائل التى كانت تنزل فى البادية العربية فى نجد وفى شمالى الحجاز.

أما انتشار هذه الظاهرة فى عذرة ذلك الانتشار الذى صورّه
أحد أبنائها بأنه ترك فى الحى "ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داء

إلا الحب"، فلا يمكن أن يفهم إلا على أساس من فهم الظواهر الاجتماعية عامة، فهي "عدوى اجتماعية" جعلت من هذا الحب بذعاً بين شباب القبيلة يلعب فيه التقليد دوراً كبيراً يدفع كل شاب إلى صاحبة له ليُعرف بها كما عرف غيره من شبابها بصاحباتهم، ثم تتدخل الظروف الاجتماعية لتطبع هذا الحب بالطابع العذري المعروف، فالمسألة - في حقيقتها - ظاهرة اجتماعية انتشرت كما تنتشر سائر الظواهر الاجتماعية على أساس من العدوى والتقليد.

أما لماذا نُسب هذا الحب إلى عذرة دون غيرها من القبائل؟ ففي أغلب الظن أن السبب في هذا يرجع إلى أنها هي التي مثّلت هذه الظاهرة الاجتماعية أقوى تمثيل، لكثرة مَنْ عرف من عشاقها الذين رأى فيهم الرواة المثل الكاملة لهذا الحب، والنماذج الدقيقة له. والألسنة المعبرة عنه أدقّ تعبير وأروع. وخاصة عند جميل بثينة الذي يُعدّ بحق أروع مثل له، وأدقّ نموذج عرفته البادية منه، وأقوى الألسنة تعبيراً عنه، وأشهر من لمع اسمه في تاريخه. وربما يرجع السبب أيضاً إلى أن أقدم من عرفه الرواة من أصحاب هذا الحب في العصر الأموي، وهو عُروة بن حزام، كان عذرياً من قبيلة بني عذرة.

وتحفل مصادر الأدب العربى بأخبار هؤلاء العذريين وأشعارهم، وهى أخبار تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، والواقع بالخيال، لأنها- لطبيعة موضوعها العاطفى- مادة صالحة للسمر الشهى الممتع الذى يغرى الرواة على التزيد والوضع والاختراع، بحيث تؤلف الحقيقة الواقعية مع ما اختلط بها من تفاصيل خيالية صورةً جميلة مؤثرة تثير المشاعر، وتهز العواطف، وتأسر الأسماع، وتمس أوتار القلوب، وأشعار هؤلاء العذريين تختلط نسبتهما إلى أصحابها اختلاطاً بعيد المدى، فما ينسب لأحدهم ينسب للآخر، والقصيدة الواحدة يتنازعها شعراؤهم فتنسب لأكثر من واحد، وذلك لأن موضوع هذه الأشعار جميعاً موضوع واحد، والأفكار التى يعبر عنها أصحابها متشابهة إلى درجة كبيرة. ومع ذلك فإن الباحث يستطيع أن يجرد هذه الأخبار من الحواشى والتفاصيل التى يكثر فيها عادة الوضع والتزيد، ليصل إلى الحقيقة المجردة الثابتة التى لا يحيط بها شك أو اتهام، كما أنه يستطيع أن ينظر إلى هذا التراث الفنى الضخم من الشعر العذرى المتشابه السمات على أنه- فى مجموعه- يعبر عن قصة الحب العذرى الخالدة فى صورتها العامة المجردة.

والصورة العامة المجردة لهذه القصة تتلخص فى أن شاباً من عذرة أو من غيرها من القبائل يحب ابنة عم له، وقد يحب فتاة من غير قبيلته، وهو حب تبدأ سطور الأولى فى المرعى حيث يلتقى الفتيان والفتيات فى أيام الربيع التى تتحول معها البادية المقفرة إلى جنة خضراء تجيش لها عواطف البدو، وتهتز مشاعرهم، وتحوم بها أحلامهم الناعمة الرقيقة، وتحيل لهم الحياة من حولهم خصباً وخيراً واطمئناناً، وتتيح لهم فرص الفراغ والتأمل والحب والغزل. وقد تبدأ هذه السطور الأولى فى مناسبة عابرة يرى فيها العاشق صاحبته مصادفة فيتعلق بها، وأكثر ما تكون هذه المناسبات العابرة فى أثناء السفر حيث يقل الماء الذى يحمله المسافرون فيضطرون إلى الالتجاء إلى أقرب مضرب للخيام يمرون به طلباً للسُّقيا، فتخرج لهم الفتيات بالماء، وتلتقى النظرات، ثم تمر الأيام لتسجل فى كتاب الحب سطوراً أخرى، نرى فيها العاشق وقد اشتد تعلقه بصاحبته، وزاد حبه لها، وارتبطت آماله بها، بل وقفت عندها، لأنه رأى فيها مثله الأعلى الذى كان يرسمه فى خياله، ويتمنى أن ترتبط حياته به، ولكن ظروفًا— قد تكون اجتماعية وقد تكون اقتصادية— تعترض سبيل آماله، وتقف فى طريق أمانيه، لتحول بينه وبين هذا الرباط المقدس الذى يتمناه، وفى بعض الأحيان يتم هذا الرباط المقدس بين العاشقين، ولكن ظروفًا تطرأ بعد ذلك فتفرق بينهما على غير إرادة منهما. وعلى الحالين تكون النتيجة واحدة،

فيشتد هيام العاشق، وتزداد حيرته، ويسيطر خيال صاحبتّه عليه، ويستبد به، حتى يصبح كل شئ في حياته، ثم ما يزال يضغط على أعصابه المرهقة، والمرهقة أيضاً، حتى تنوء به وتنهار، فإذا هو شبح مضنى هزيل تصطليح عليه الأدواء والعلل والأسقام، أو خيال شارد في الصحراء تتقاذفه القلوات وقد استبدت به الوسائس والظنون والأوهام، وقد يقاوم العاشق ويتجلد، ويطوى صدره على جراحه، ويضم جوانحه على النار التي تتأجج في أعماقها، فيقضى بقية عمره على ذكريات ماضٍ قُدر له فيه الشقاء، وحب كُتب عليه فيه الحرمان، وتتوالى سطور المأساة الحزينة بعد ذلك، لتكون النهاية التي لا مفر منها، فيخط الموت السطر الأخير في المأساة، ويسقط البطل شهيد الحب وصريع الحرمان، لتلحق به- بعد حين قد يقصر وقد يطول- صاحبتّه التي عاشت بعده تسترجع ذكرياتها الحزينة، وتستعيد أحزانها الباكية.

في داخل هذا الإطار العام دارت أحداث قصة الحب العذرى الحزينة، وهى أحداث كانت تتشابه إلى حد كبير رغم اختلاف المآسى وتعدد الأبطال، فالبداية واحدة، والنهاية واحدة، وبينهما أحداث تتشابه، بل تتكرر أحياناً، كأنما نشاهد عرضاً ثانياً للقصة، أو نقرأ طبعة جديدة لها.

وأقدم قصص هؤلاء العذريين تاريخيًا هي قصة عروة وعفراء^(١)، وهما من قبيلة بنى عذرة. أحب عروة بن حزام ابنة عمه عفراء وهما صبيان، وكان عروة يعيش في بيت أبيها بعد وفاة أبيه، وربط الحب بين القلبين الصغيرين منذ طفولتهما المبكرة، وشب مع شبايهما. وتمنى عروة أن يتزوج الزواج قصة حبهما الطاهرة، فأرسل إلى عمه يخطب إليه عفراء، ووقف المال عقبة في طريق العاشقين، فقد غالت أسرة عفراء في المهر، وعجز عروة عن القيام به. وألح عروة على عمه، وصارحه بحب عفراء، فراح يماطله ويمنيه الوعود، ثم طلب إليه أن يضرب في الأرض لعل الحياة تقبل عليه فيعود بمهر عفراء. وينطلق عروة بحثاً عن المال، ثم يعود بعد حين وقد تيسر له ما كان يسعى إليه، والأمل يداعب نفسه، ويرسم له مستقبلاً سعيداً يجمع بينه وبين عفراء. وفي أرض الوطن يخبره عمه أن عفراء قد ماتت، ويريه قبراً جديداً ويقول له إنه قبرها. وتتحطم آمال عروة، وينهار كل ما كان يبنيه لأيامه المقبلة، وترتبط حياته بهذا القبر، يبته آلامه، ويندب حظه، ويبكى حبه الضائع ومأساته الحزينة، ويذيب نفسه فوق أحجاره الصمّ حشرات ودموعاً. ثم تكون مفاجأة لم يكن يتوقعها، لقد ترامت إليه أنباء بأن عفراء لم تمت، ولكنها تزوجت. فقد قدم أموى غنى من الشام في أثناء غيبته، فنزل بحى عفراء، ورآها فأعجبته،

(١) أدرك عروة الجاهلية، وتوفي سنة ٣٠ للهجرة فلم يدرك العصر الأموى.

فخطبها إلى أبيها، ثم تم الزواج رغم معارضتها، ورحل بها إلى الشام حيث يقيم. وتثور ثائرة عروة، ويصب جام غضبه على عمه الذى خدعه مرتين: خدعه حين مناه عفراء، ودفع به إلى آفاق الأرض البعيدة خلف مهرها، ثم خدعه حين لفق له قصة موتها، وتركه فريسة أحزانه ودموعه، فمضى يهجو:

فيا عمّ يا ذا الغدر لا زلت مُبْتَلًى حليفا لهمّ لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سَجِيَّةً فالزمت قلبى دائم الخفقان
وأورثتني غمًا وكرباً وحسرة وأورثت عيني دائم الهملان
فلا زلت ذا شوق إلى من هَوَيْتَه وقلبك مقسوم بكل مكان

وينطلق عروة إلى الشام، وينزل ضيفاً على زوج عفراء والزوج لا يعرفه بطبيعة الحال، ثم ما يزال يحتال حتى يبعث إليها بخاتمته فى إثناء لبن مع جارية لها، وتعرف عفراء أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم. ويلتقى العاشقان بعد تلك الأيام الطويلة الحزينة التى باعدت بينهما، ويتذكران ماضيهما السعيد فوق أرض الوطن البعيدة وما فعلت بهما الأيام، وتكون شكوى، وتكون دموع. ويصمم عروة على العودة إلى وطنه حرصاً على سمعة عفراء وكرامتها، واحتراماً لزوجها الذى أحسن وفادته وأكرم مثواه. ويرحل عروة بعد أن تزوده عفراء بخمار لها ذكرى حبيبة منها. وفى أرض

عذرة التى شهدت رمالها السطور الأولى من قصة حبه، تكون
الأدواء والأسقام فى استقباله. وتسوء حال عروءة، ويشتد عليه
الضنى، ويستبد به الهزال، ويلح عليه الإغماء والخفقان، ويأخذه
مرض السل حتى لا يبقى منه شيئاً، ويعجز الطب عن علاجه. ولا
يجد عروءة إلا شعره يفرع إليه لبيثه آلامه وأحزانه، ويصور فيه ما
يلح على نفسه من أشواق وحنين، وما يضطرب فى جوانحه من
أسى ووجد. يقول مرة:

تحمّلتُ من غفراء ما ليس لى به	ولا للجبال الراسيات يدان
كأنّ قطاة علّقتُ بجناحها	على كبدي من شدة الخفقان
جعلتُ لعرّاف اليمامة حكمه	وعراف نجد إن هما شَفَيَانِي
فقالا: نعم نشفى من الداء كله	وقاما مع العُودا بيتدران
فما تركا من رُقِيّة يعلمانها	ولا سُلوّة إلا وقد سَقَيَانِي
وما شَفَيَا الداء الذى بى كله	ولا نَحَرَا نصحا ولا ألوانِي ^(١)
فقالا: شفاك الله، والله مالنا	بما ضُمْنَتْ منك الضلوع يدان
فويلى على غفراء ويلاً كأنه	على الصدر والأحشاء حد سنان

ويقول أخرى:

^(١) ما ألوانى: ما قصرا فى حقى.

فوالله لا أنساك ما هَبَّت الصَّبَا وما عَقَبَتْها فى الرِّياح جَنُوبُ
 وإنى لتعرونى لذكراك هزة لها بين جلدَى والعظام ديب
 وما هو إلا أن أراها فُجاءةً فأُبهَتْ حَتَّى ما أكاد أُجيب
 وأصرَفَ عن رأىى الذى كنت أرْتَى وأنسى الذى أعددتُ حين تغيب
 حلفتُ بربِّ الرَّاكعين لربهم خشوعاً، وفوق الرَّاكعين قريب
 لئن كان برد الماء حَرَّان صاديا إلىَّ حبيباً إنها لحبيب

ويقضى عروة أيامه بين أمل عاش له ثم ضاع منه إلى الأبد، وألم يعيش فيه وقد استقر فى أعماقه إلى الأبد، وبينهما خيال عفراء الحبيبة لا يفارقه. ثم تكون نهاية المأساة، فيسدل الموت على العاشقين ستار الختام، فيموت عروة، ويبلغ النبا عفراء، فيشتد جزعها عليه، وتذوب نفسها حشرات وراءه، وتظل تندبه وتبكيه حتى يطويها الموت بعده بقليل. ويأبى خيال القُصَّاص إلا أن يجمع بينهما بعد الموت، فقد دُفنت عفراء إلى جانب قبر عروة، ومن القبرين تنبت شجرتان غريبتان لم ير الناس مثلهما من قبل، تظلان تتموان حتى تلتفت إحداهما على الأخرى، تحقيقاً لأمل قديم حالت الحياة دون تحقيقه، وأبى الموت إلا أن يحققه.

هذه هى أقدم قصة وصلت إلينا من قصص الحب العذرى فى العصر الأموى، وهى تمثل - بحق - المعالم الأساسية، والملامح المميزة، لكل

القصص العذرى، ومن المحتمل- كما قلنا منذ قليل- أن تكون هي التى أعطت هذا اللون من الحب اسمه الذى عرف به.

على نحو من هذه الصورة التى رأيناها فى قصة عروة وغراء كانت سائر قصص العذريين الأمويين:

أحب قيس بن الملوّح العامريّ ابنة عمه ليلى. بدأت قصتهما- كما تبدأ أكثر قصص الحب فى البادية- فى المرعى، وهما صبيان يرعيان ماشية أهلها. وكبر العاشقان، وكبر معهما حبهما، وحجبت ليلى عن قيس، فازداد حبه لها، واشتد حنينه إلى أيامهما الصغيرة أيام أن كان الحب طفلاً يرعاها دون رقيب أو حجاب:

تعلّقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ صغيرين نرعى البهْم، ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْمُ

ولكن عجلة الزمن لا ترجع إلى الوراء، وطفل الحب الذى رعاها فى صباهما الصغير يكبر وينمو، ويشد ساعده، ويقوى عوده، وسهامه الصغيرة الرقيقة التى ضمت قلبيهما صبيين فى المرعى أصبحت بعد أيام الصبا حادة نافذة. ويشد هيام قيس، ولا يجد إلا شعره مُتَنَفِّساً له بنفس فيه عن نفسه ما تنوء به من وجد وشوق وحنين. ويشتهر أمره فى الحى، وتتداول الألسنة قصة حبه، ويتقدم إلى أبيها يخطبها، ويتقدم فتى من ثقيف

يخطبها أيضاً، ويكرهها أهلها على قبول التقفى ورفض قيس خوفاً من العار وقبح الأحداث، وقطعاً لأسنة الشائعات وقالة السوء والإفك. ويمضى

التقفى بليلى إلى الطائف، وتزداد حيرة قيس واضطرابه، وتنقل على نفسه الهموم والأحزان، ويحس أنه بين شقى رضى طاحنة: حب لا يملك منه فكاكاً، ويأس لا يرى معه بصيصاً من أمل. ولا يجد سوى شعره - مرة أخرى - يتنفس فيه ما تفيض به نفسه من حزن وشجن، وحيرة واضطراب، وضيق وسخط:

فأنتِ التى إن شئتِ أشقىتى	وإن شئتِ بعد الله أنعمتِ باليا
وأنتِ التى ما منْ صديق ولا عدأ	يرى يضمنو ما أبقيتِ إلا رثى ليا
إذا سرتِ فى الأرض الفضاء رأيتنى	أصانع رحلى أن يميل حياليا
يميناً إذا كانت يميناً، وإن تكن	شمالاً يَنَازعنى الهوى عن شماليا
أعدُّ الليالى ليلةً بعد ليلة	وقد عشت دهرأ لا أعد اللياليا
أرانى إذا صليتِ يَمُتْ نحوها	بوجهى وإن كان المصلى ورائيا
وما بى إشراك، ولكن حبها	كمثل الشجا أعيا الطبيب مداويا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها	وأشبهه أو كان منه مدانييا
هى السحر إلا أن للسحر رُقِيَّة	وأنى لا ألقى لها الدهر راقيا

وتتهار أعصاب قيس تحت وطأة هذه الرحى الطاحنة، ويُجن جنونه،
وتعصف بعقله لوثته، فيخرج إلى الصحراء هائماً على وجهه لا يكاد يدرى
من أمره شيئاً، يناجى خيالها البعيد، ويصور فى شعره محنته القاسية،
ومصابه الفاجع فى أعز ما يملك فى الحياة: قلبه وعقله اللذين ذهبت بهما
ليلى إلى غير رجعة:

أقول لأصحابي: هي الشمس ضوؤها	قريب ولكن فى تناولها بُعْدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحةٍ	على كبدى من طيب أرواحها بَرْدُ
فما زلتُ مَغْشِيّاً علىّ، وقد مضت	أناة، وما عندى جواب ولا رَدُّ
أَقْلَبُ بالأيدى، وأهلى بعوالةٍ	يُفْذُوننى لو يستطيعون أن يَفْذُوا
ولم يَنْقُ إِلَّا الجلد والعظم عاريا	ولا عَظْمَ لى أن دام ما بى ولا جِلْدُ
أدنياى ما لى فى انقطاعى وغربتى	إليك ثواب منك دَيْنٌ ولا نَقْدُ
عِدِينى- بنفسى أنت - وعداً فربما	جلا كُرْبَةَ المكروب عن قلبه الوعدُ
وقد يبتلى قوم ولا كبلتلى	ولا مِثْلُ جَدَى فى الشقاء بكم جَدُ
غزنتى جنود الحب من كل جانب	إذا حان مِنْ جُنْد قفول أتى جند

وتمر الأيام، وفيس لا يزداد إلا سوءاً، لقد غزته حقاً- كما يقول-
"جنود الحب من كل جانب"، بل لقد غزته جنود الجنون حتى ذهبت بعقله،
وهو جنون بالغ فيه الرواة وتخطبوا فى تصويره، ولعب خيال القصاص

فى ذلك دوراً كبيراً، حتى تحولت حياة العاشق المسكين على أيديهم إلى حياة يصعب - بل يستحيل - تصورها. والمسألة أبسط مما تصوروا، لقد سيطر الحب على عقل قيس، واستبد به، حتى أذهله عن كل ما عداه، وتركه تائهاً فى أوهامه، هائماً فى خيالاته، لا يكاد يصحو منها إلا إذا ذكرت له ليلى. وهو يصور فى شعره حاله تصويراً دقيقاً لا صلة له بمبالغات الرواة وأخيلة القصاص، يقول مرة:

أيا وَيَحَ مَنْ أَمسى تُخْلَسُ عقله فأصبح مذهباً به كل مذهب
إذا ذُكِرَتْ ليلى عَقَلْتُ وراجعت عواذبُ قلبى من هوى مُتَشَعِّبٍ

ويقول أخرى:

وإنى لمجنونٌ بليلى مُوَكَّلٍ ولستُ عزوفاً عن هواها ولا جَنَداً
إذا ذُكِرَتْ ليلى بكيتُ صبايةً لتذكارها حتى يَبْلُ البكا الخدا

ويقول أيضاً:

وشُغِلْتُ عن فهم الحديث سوى ماكان فيك فإنه شُغِلَ
وأديم لَحْظَ مُحَدَّثَى ليرى أن قد فهمتُ وعندكم عقلى

ويبذل أهله كل ما فى وسعهم لينقذوه مما آلت إليه حاله، ولكن محاولاتهم تذهب جميعاً أدراج الرياح. ويظل قيس فى صحرائه غريباً مستوحشاً مشرداً لم تبق منه إلا بقية من جسد هزيل، وبقية من عقل شارد، كلما ثابت إليه فزع إلى شعره يبيته ما يلقاه فى حب ليلى من عناء وشقاء،

وما يقاسيه بسببه من كَرْبٍ وتباريح، حتى يلقي منيته في واد خشن كثير
الحجارة^(١)، بعيداً عن ليلي التي وهب لها حياته وفنه، بعيداً عن أبيها الذي
كان سبب شقائه وبلواه، ولكنه لا ينسى أن يوجه إليه قبل أن يودع
الحياة هذه الأبيات التي وجدت- بعد موته- مكتوبة إلى جواره، والتي
صور فيها ما تفيض به نفسه من حقد عليه، كما صور فيها مأهاته الحزينة
تصويراً دقيقاً مؤثراً:

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يَرْضَى شَقِيَّتْ وَلَا هُنَيْتْ مِنْ عَيْشِكَ الْغَضَا
شَقِيَّتْ كَمَا أَشَقِيَّتِي وَتَرَكْتَنِي أَهِيْمَ مَعَ الْهَالِكِ لَا أَطْعَمُ الْغَمَضَا
كَأَنَّ فَوَادِي فِي مَخَالِبِ طَائِرٍ إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلِي يُشَدُّ بِهَا قَبْضَا
كَأَنَّ فَجَاجَ الْأَرْضِ حَلْقَةً خَاتَمٍ عَلَى فَمَا تَزْدَادُ طَوْلَا وَلَا عَرَضَا

ويسدل الستار على مأساة أخرى من مآسي الحب العذرى.

في نفس الوقت الذي شهدت نَجْدٌ فِيهِ مَأْسَاءَ مَجْنُونٍ لَيْلِي شَهِدَ
الحجاز مأساة أخرى من مآسي الحب العذرى بطلاها قيس بن
ذريح وصاحبته لبنى^(٢)

أحب قيس بن ذريح لبنى بنت الحُبَاب، وهو مُضَرِّيٌّ مِنْ كِنَانَةٍ، وَهِيَ
بِمَنْيَةِ مَنْ خَزَاعَةٌ، تَجْمَعُ بَيْنَهُمَا صِلَةٌ نَسَبٍ مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ، فَقَدْ كَانَتْ أُمُّ قَيْسٍ

^(١) توفي مجنون ليلي حوالى سنة ٧٠ للهجرة.

^(٢) توفي قيس بن ذريح فى سنة ٦٨ للهجرة فنه معاصر للمجنون.

خزاعية. وكانت منازل كنانة في ظاهر المدينة، ومنازل خزاعة في ضواحي مكة. وفي إحدى زيارته لأخواله الخزاعيين رأى قيس لبني وقد مر بخبائها، فاستسقاها فسقته، وأعجبته فأحبها. ثم تردد عليها وشكا لها حبه فأحبته. ومضى إلى أبيه يسأله أن يخطبها له فأبى. لقد كان أبوه غنياً كثير المال، وكان قيس وحيدة، فأحب أن لا يخرج ماله إلى غريبة، وقال له: بنات عمك أحق بك. فمضى إلى أمه يسأله أن تذل له العقبة عند أبيه، فوجد عندها ما وجد عنده. ولجأ قيس أخيراً إلى الحسين بن علي - وكان أخاه في الرضاع، أَرْضَعَتْهُ أم قيس معه - ووسَّطَ في الأمر. وكان طبيعياً أن تكلل وساطة الحسين بالنجاح. لقد مضى الحسين إلى الحباب والد لبني، ثم مضى إلى ذريح والد قيس، واستطاع أن يجمع بين العاشقين برباط الزوجية المقدس. وتحقق لقيس أمله. وضمه ولبنى بيت الزوجية السعيد، ولكن القدر أبى عليهما سعادتهما ولم يمض عليها سوى سنوات قليلة. لقد كانت لبني عاقراً، وخشى أبواه أن يصير مالهما إلى الكلالة، فأرادا له أن يتزوج غيرها لعلها تنجب له من يحفظ عليهما مالهما.

. ورفض قيس أن يطلق زوجه الحبيبة، وتخرجت الأمور بينه وبين أبويه، إنهما مصممان على طلاقها، وهو مصمم على إمساكها. وأقسم أبوه لا يَكُنَّه سقف بيت حتى يطلقها، فكان يخرج فيقف في حر الشمس، ويأتي قيس فيقف إلى جانبه ويظله بردائه ويصلى. هو بالحر حتى يفي الظل

فينصرف عنه، ويدخل إلى لبني فيعانقها وتعانقه، ويبكى وتبكي معه، ويتعاهدان على الوفاء. وأزمنت المشكلة، وساءت العلاقات بين طرفيها، واجتمع على قيس قومه يلومونه ويحذرونه غضب الله في الوالدين، وما زالوا به حتى طلق زوجه. ورحلت لبني إلى قومها بمكة، وجزع قيس جزعاً شديداً، وبلغ به الندم أقصى مداه، وتحولت حياته إلى أسف لا ينتهي، وندم لا ينقطع، ودموع لا تغيض، وحسرات لا تقف عند حد، ولم يجد أمامه سوى شعره يبيته أسفه وندمه ودموعه وحسراته.

يقول مرة:

يقولون: لبنى فتنة كنت قبلها
فطاوعت أعدائي، وعاصيت ناصحي
وبذت، وبيت الله، أنى عصيتهم
وكلفت خوض البحر، والبحر زاهر
كأنى أرى الناس المحبين بعدها
فتكر عيني بعدها كل منظر
بخير، فلا تتدم عليها وطلّق
وأقررت عين الشامت المتخلّق^(١)
وحملت في رضوانها كل موبق^(٢)
أبيت على أثباج موج مغرّق^(٣)
عصارة ماء الحنظل المتفلّق
ويكره سمعي بعدها كل منطق

ويقول أخرى:

وفارقت لبنى ضلّة فكاننى
فيا ليت أنى مت قبل فراقها
فصرت وشيخى كالذى عثرت به
قرنت إلى العيوق ثم هويت^(٤)
وهل ترجعن فوئت القضية ليت
غداة الوغى بين العداة كميّت^(٥)

(١) المتخلّق: الذى يتكلف مالىس فى خلقه.

(٢) موبق: مهلك، والموبقات: المهلكات.

(٣) أثباج الموج: ظهوره ومتونه العالية.

(٤) ضلة أى ضلالا. والعيوق: نجم.

(٥) يريد بشيخه أباه. والكميت: الفرس.

فقامت، ولم تُضَرَّرْ هناك، سَوِيَّةٌ وفارسها تحت السنايك مَيَّتْ (١)
 فإن يك تهيامى بلبنى غَوَايَة فقد، يا ذريح بن الحُبَاب، غَوِيَتْ
 فلا أَنْتَ ما أَمَلْتَ فَيَّ رَأَيْتَه ولا أنا لبنى والحياة حَوِيَتْ
 فوطُنْ لهلكى منك نفسا فإِنْنى كأنك بى قد، يا ذريح، قَضَيْتْ

ولم يطق قيس عن لبني صبراً، واشتد حنينه لها، وشوقه إليها، فعاد
 زيارتها، وشكاه أبوها للسلطان، فأهدر دمه إن ألم بها، وحيل بينه وبينها
 مرة أخرى. ومرة أخرى لا يجد أمامه سوى شعره يبيته أحزانه وآلامه:

فإن يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالَةْ واش أو وعيد أمير
 فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البكا ولن يُذهبوا ما قد أَجَنَّ ضميرى
 إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى ومن كُرب تعادنى وزفير
 ومن حُرِّق للحب فى باطن الحشى وليل طويل الحزن غير قصير
 سَابِكى على نفسى بعين غزيرة بكاء حزين فى الوثاق أسير
 وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى بأنعم حَالِيْ غبطة وسرور
 فما برح الواشون حتى بدت لهم بطون الهوى مقلوبةً لظهور
 لقد كنت حَسْبَ النفس لو دام وصلنا ولكنما الدنيا متاع غرور

(١) سوية: سليمة. يقول حالي مع أبى كفارس عثرت به فرسه فى الحرب بين الأعداء،
 فقامت الفرس سليمة لم يصيبها ضرر، وعمر صاحبها صريعاً تحت سنايك الخيل.

ومع ذلك فقد كانت تتاح للعاشقين - من حين إلى حين - فرصة لقاء
 يانس حزين تزداد معه "حُرَق الحب" تأججاً واشتعالاً، ويتجسم بعده الشعور
 بالحرمان، والإحساس بالحسرة والندم. وساعات حال قيس، واعتلت صحته،
 وأصابه هزال وذهول شديدان، وأشار قومه على أبيه أن يزوجه عله ينسى
 حبه القديم. وتزوج قيس كارهاً زواجاً لا سعادة فيه، وبلغ الخبر لبني
 فتزوجت هي أيضاً زواجاً لا سعادة فيه، ورحل بها زوجها إلى المدينة،
 وكأنما شاعت الأقدار أن تقرّب لبني من قيس ليزيد من ندمه وأسفه
 وحسراته. واشتد جزع قيس، ولم يلبث أن استطير عقله ولحقه مثل
 الجنون. وضاعت السبل في وجهه، ثم خطر له أن يلجأ إلى يزيد بن معاوية
 ليتوسط له عند أبيه حتى يلغى أمره السابق بإهدار دمه. ونجحت وساطة
 يزيد، وعفا معاوية عن قيس، فعاد زيارة لبني. وانتشر أمر قيس في
 المدينة، وغنى في شعره مغنوها ومغنياتهما، " فلم يبق شريف ولا وضيع إلا
 سمع بذلك فأطربه وحزن لقيس مما به".

وساعات العلاقات بين لبني وزوجها، لقد غضب الزوج وأُنب زوجته،
 وغضبت لبني وطلبت من زوجها الطلاق.

وعادت الأمور تتعقد في وجه قيس، وازدادت همومه وأعياؤه، وأخذت
 صحته في الانهيار، والأدواء والأسقام تلح عليه إلحاحاً عنيفاً، يقول تارة:

إذا ذُكرتُ لبني تَأَوَّهَ واشتكى تَأَوَّهَ محموم عليه البلابل^(١)
 بيت ويُنْحَى تحت ظل منية به رَمَقَ تَبكى عليه القبائل
 قتيل للبني صدَّعَ الحب قلبه وفي الحب شُغْلٌ للمحبين شاغل
 ويقول تارة أخرى:

سلا كل ذي شَجْوٍ علمتُ مكانه وقلبي للبني ما حَيَّيتُ ودودُ
 وقائلة قد مات أو هو ميت وللنفس منى أن تَفِيضَ رصيد
 أعالج من نفسي بقايا حُشاشة على رَمَقٍ، والعائدات تعود
 فإن ذُكرتُ لبني هَشِشْتُ لذكرها كما هَشَّ لِلثدى الدُرُورُ وليد
 أجيب لبني من دعائي تجلدا وبى زَقَرَاتٍ تتجلى وتعود
 تعيد إلى روحى الحياة، وإننى بنفسى لو عَايَنْتَنِي لأجود

ثم تكون النهاية التي اختلف الرواة حولها، فمن قائل إن زوجها طلقها فأعادها قيس إلى عصمته ولم تزل معه حتى ماتا، ومن قائل إنها ماتا على افتراقهما، وعلى ذلك أكثر الرواة. ثم يختلفون بعد ذلك، فمنهم من يقول إنه مات قبلها وبلغها نعيه فماتت أسفاً عليه، ومنهم من يقول إنها ماتت قبله، فخرج معه جماعة من أهله، فوقف على قبرها، ثم أكب عليه وظل يبكي حتى أغمى عليه، فحملوه إلى بيته وهو لا يعي شيئاً، ولم يزل عليلاً

^(١) البلابل : الوسواس.

لا يفارق ولا يجيب حتى مات بعد ثلاثة أيام، فدفن إلى جوارها، وأسدل الستار على مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى.

قريباً من هذا الوقت الذى شهدت فيه نجد مأساة قيس وليلى، وشهد الحجاز مأساة قيس ولبنى، شهدت أرض بنى عذرة مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى، هى مأساة جميل وبثينة ^(١).

وإذا كانت مأساة قيس وليلى - على شهرتها المستفيضة - أشد هذه المآسى اختلاطاً واضطراباً لكثرة ما دخلها من وضع الرواة، وتزيد القصص، وأوهام السُّمار، فإن مأساة جميل وبثينة أبعد هذه المآسى عن الاختلاط والاضطراب، وأقربها إلى الواقع الذى نجا من عبث أصحاب الرواية والقصص والسر.

أحب جميل بن معمر العذرى ابنة عمه بثينة بنت الحباب. رآها ذات يوم فى المرعى وقد مرّت به فنفّرت إليه، فسبّها فسبّته، واستلمح سبابها فأحبها وأحبته، وبدأت السطور الأولى فى قصة الحب العذرى الخالدة:

^(١) توفى جميل فى سنة ٨٢ للهجرة.

وأول ما قاد المودة بيننا بوادى بغيض، يابئين، سبَابُ
 فقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام، يابئين، جواب
 وتمر الأيام، وسطور القصة تتوالى سطرًا بعد سطر. لقد اشتد هيام
 جميل ببثينة، واشتد هيامها به، وشهدت أرض عذرة العاشقين يلتقيان ولا
 يكاد أحدهما يصبر عن صاحبه.

وشاعت قصتهما، وشهر أمرهما، فتوعده قومها، وتقدم جميل إليهم
 يخطبها، ولكنهم أبوها عليه وردّوه دونها، وزوجوها من فتى منهم، نُبِّيّه بن
 الأسود العذرى. وكان جميل من فتيان عذرة وفرسانها الأشداء، وكان قومه
 أعز من قوم بثينة، فوقف في وجههم يتحداهم ويهزأ بهم. يقول مرة:
 ولو أن ألفاً دون بثينة كلهم غيارى، وكلّ حاربٍ مُزْمَعٌ قَتلى
 لحاولتها إما نهارة مجاهرا وإما سرى ليل ولو قُطعتْ رجلى
 ويقول أخرى:

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهمُّوا بقتلى، يابئين، لقُونى
 إذا ما رأونى طالعاً من ثِيَّة يقولون: من هذا؟ وقد عرفونى
 يقولون لى: أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بى خاليا قتلونى

ولم يغير هذا الزواج من الحب الجارف الذى كان يملأ على العاشقين
 قلوبهما، وظلت العلاقة بينهما كما كانت من قبل، يزورها سرّاً فى غفلة من
 زوجها، أو يلتقيان خارج بيت الزوجية، وما بينهما سوى الطهر والعفاف.
 وشكا زوجها إلى أهلها، وشكا أهلها إلى أهله، وتحدث إليه أهله فى أمر
 هذه العلاقة الغريبة التى لا أمل فيها، وهذا الإلحاح الذليل خلف امرأة
 متزوجة، وحذّروه مغبة الاندفاع فى هذا الطريق الشائك الوعر، وما
 ينطوى عليه من عواقب وخيمة، وهدّدوه بأن يتبرأوا منه ويتخلوا عنه إذا
 استمر فى ملاحقته لها. ولكن هذا كله لم يغير من الأمر شيئاً، ولم يفلح فى
 إطفاء الجذوة المتقدة فى قلبى العاشقين. لقد امتنع جميل عن بثينة فترة من
 الزمن لم تطل، ثم عادت النار تتأجج فى فؤاده، فعاود زيارتها، بل تهادى
 فى علاقته بها، وفى تحديه لأهلها واستهانته بزوجها، فلم يجدوا أمامهم
 سوى السلطان يشكونه إليه، فشكوه إلى عامر بن ربیعٍ وإلى بنى أمية على
 وادى القرى، فأنذره وأهدر لهم دمه إن رأوه بديارهم. وامتنع جميل عن
 بثينة مرة أخرى، ومرة أخرى ألح عليه الشوق، ولم يطق عنها صبراً،
 فعاود زيارتها معرضاً نفسه للهلاك. وأعاد أهلها شكواهم إلى السلطان،
 فطلبه طلباً شديداً. وفرّ جميل إلى اليمن حيث أخواله من جذام، وظل مقيماً
 بها حتى عُزل ابن ربیع، فعاد إلى وطنه ليجد قوم بثينة قد رحلوا إلى
 الشام، فرحل وراءهم. وكأنما يئس جميل من هذه المطاردة التى لا تنتهى،

والتي أصبح الأمل فيها ضعيفا، والفرصة ضيقة. لقد فرقت البلاد بينه وبين صاحبه، ولم يعد لقاؤهما ميسراً كما كان عندما كانت تضمهما جميعاً أرض عذرة، فقرر أن يرحل إلى مصر، ربما ليلحق ببعض قومه الذين سبقوه إليها، واستقروا بها، كما فعلت كثير من القبائل العربية التي هاجرت إليها بعد الفتح. وانتهاز جميل فرصة أتاحت له في غفلة من أهل بثينة، فزارها مودعاً الوداع الأخير، ثم شد رحاله إلى مصر حيث قضى فترة من الزمن لم تطل، يتشوق إليها، ويحن لها، ويتذكر أيامه معها، ويبكى حبه القديم:

ألا ليت أيام الصفاء جديداً	ودهرنا تولى يابثين يعود
فغنى كما كنا نكون، وأنتم	صديق، وإذ ما تبذلين زهيد
وما أنسَمَ الأشياء لا أنس قولها	وقد قرّبت نضوى: أمصر تريد؟
ولا قولها: لولا العيون التي ترى	أنتك فاعذرني فدتك جدود
علقت الهوى منها وليدا فلم يزل	إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
فلو تكشف الأحشاء صودف تحتها	لبتت حسب طارف وتليد
ألا ليت شعري هل أبين ليلة	بوادي القرى إنى إذن لسعيد
وهل ألقين سغدى من الدهر مرة	ومارث من جبل الصفاء جديد ^(١)

(١) سعدى هي بثينة .

وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسه وقد تطلب الحاجات وهى بعيد

ولكن القدر أبى أن تلتقى الأهواء بعد يأس، أو أن تدرك الحاجات
البعيدة ، فلم تطل أيام جميل بمصر ، فقد أخذ النور يخبو، ثم انطفأ السراج،
وودّع جميل الحياة بعيداً عن بثينة التى أفنى شبابه فى طلبها، بعيداً عن
أرض عذرة التى شهدت أيامهما السعيدة وأيامهما الشقية، بعيداً عن وادى
القرى الذى كان يتمنى أن يعود إليه ليبين فيه ليلة تكتمل له فيها سعادته.
ويبلغ نعيه بثينة بعد حين ، فتسقط مغشياً عليها، حتى إذا ما أفاقت أنشدت
هذين البيتين اللذين تعاود فيهما نفسها على الوفاء لعهد والإخلاص لذكره،
والذين أودعت فيهما كل ما تفيض به نفسها من مرارة ويأس بعده:

وإن سلوى عن جميل ساعة من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

وتمر الأيام عليها بعد ذلك حزينة باكية، وتتوالى الليالى طويلة ثقيلة
موحشة، تستعيد فيها ذكريات حبها البعيدة ، وتسترجع ما مرّ بها فى
ماضيها السعيد الذى طوته رمال عذرة إلى الأبد. ويأخذ النور يخبو، ثم
ينطفئ السراج، وتودّع بثينة الحياة بعيدة عن جميل الذى وهبته حبها
وإخلاصها، بعيدة عن أرض عذرة ووادى القرى ووادى بغض حيث خطّ

طفل الحب أول سطر فى كتاب حبهما الخالد. ويسدل الستار على مأساة
أخرى من مآسى الحب العذرى الحزينة .

ويطول بنا القول لو مضينا نستعرض سائر مآسى الحب
العذرى التى شهدتها البادية العربية فى هذا العصر، وهى مآس
متشابهة الأحداث إلى حد كبير، متشابهة الطوابع الفنية إلى حد
أكبر. وإذا كانت مأساة قيس بن ذريح ولبنى تمثل شيئاً من الخروج
على هذا التشابه، فإن الإطار العام الذى دارت فى داخله أحداثها
يوشك أن يكون نفس الإطار الذى دارت فيه سائر المآسى الأخرى:
عاشقان يحب كل منهما صاحبه إلى درجة الجنون، ثم عقبات
تعترض طريق سعادتهما فتفرض عليهما الشقاء والحرمان، ثم
موت يطويهما، وستار حزين يسدل على المأساة، وذكريات تبقى،
وشعر يخلد، ورمال البادية المتحركة تطوى فى أعماقها أسراراً،
وتكشف أسراراً أخرى.

الصورة العامة للحب العذرى تتلخص فى أنه حب روحى يأخذ شكل
 مأساة حزينة، بدايتها أمل، ونهايتها يأس، تدور أحداثها بين عاشقين تسيطر
 على حبهما العفة والإخلاص والتوحيد والحرمان.

فهو حب روحى عفيف طاهر لا سلطان لشهوات الجسد أو
 نوازع الغريزة عليه، تسيطر عليه عاطفة تتسامى على الغرائز
 والشهوات ولا تجعل لها سبيلا إليها. وليس معنى هذا أنه حب يلغى
 الجسد إلغاء تاماً، فإن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة، ولا يستقيم مع
 واقع الصلة بين العواطف والغرائز فى الطبيعة البشرية. والأمر
 الذى لا شك فيه هو أن حب الجسد دافع من الدوافع إلى هذا الحب،
 كما أنه هدف من أهدافه، لأنه بدون هذا الدافع، ومن غير هذا
 الهدف، لا يمكن لعاطفة حب بين رجل وامرأة أن تقوم. ومن
 الواضح أن المسألة فى بدايتها إعجاب رجل بامرأة، وطبيعى أن
 يكون الإعجاب بالجسد جزءاً من هذا الإعجاب العام، وإلا لما كان
 الزواج هدفاً يسعى إليه كل عاشق، وأملا يتمنى أن يتحقق له،
 ويلقى فى سبيله صنوفاً من البلاء والعذاب والعناء، ولكن النقطة
 الحاسمة التى الموضوع التى تفصل بوضوح بين هذا اللون من

الحب وغيره من الألوان هي أن هذا الإعجاب بالجسد لا يصل إلى درجة السيطرة وفرض السلطان على العلاقة بين العاشق العذرى وصاحبه بحيث تتحول المسألة إلى ظمأ جسدى خالص أو جوع جنسى مطلق. فالجانب الجسدى فى الحب العذرى يظل فى موضعه المشروع رغبات يتمنى العاشق أن تتحقق له عن طريق الزواج، وبهذا تتحول المسألة إلى حب مشروع لا إثم فيه، يقره الخلق، وترضاه الفضيلة، ولا ينكره الدين، ما دام الهدف منه تلك الرابطة المقدسة المشروعة. ولو لا هذا لما رأينا رجلاً كالحسين حفيد رسول الله يتوسط من أجل قيس بن ذريح حتى تتحقق له هذه الرابطة المقدسة بينه وبين صاحبه.

فى ضوء هذا الفهم نستطيع أن نرى الحب العذرى فى وضعه الصحيح صراعاً بين الجسد والروح يتحول فى نفس العاشق- لأسباب شخصية أو اجتماعية أو اقتصادية- إلى رغبات مكتوبة، وهى رغبات كان العشاق العذريون يتسامون بها فوق مستوى الغرائز، ويرتفعون بها فوق مستوى الشهوات، ويستعلون بها فوق رغبات الجسد.

وشعر العذريين كلهم- بدون استثناء- وأخبارهم توضع بهذا العطر النقى الصافى، عطر الطهر والعفة والفضيلة. يقول جميل:

وكان التفرق عند الصبا ح عن مثل رائحة العنبر
 خيلان لم يقربا ريبة ولم يستخفا إلى منكر
 فهما عاشقان يحب كل منهما صاحبه، جمعتهما على غفلة من الناس
 خلوة فى الليل استمرت حتى الصباح، ومع ذلك لم يقربا ريبة، ولم
 يستخفهما الهوى إلى إثم أو منكر. إنه الحب العذرى العفيف الطاهر الذى
 يتسامى به أصحابه فوق رغبات الجسد وما يضطرم فيه من غرائز
 وشهوات. ويقول أيضا:

لا والذى تسجد الجباه له ومالى بما دون ثوبها خبر
 ولا بفيها، ولا هممت به، ما كان إلا الحديث والنظر
 فهو يكتفى بالنظرة، ويقنع بالحديث، ولا يطمع فى أكثر من هذا
 من متع الجسد. بل إنه يصرح فى أبيات أخرى بأن كل رغبات
 الجسد تموت منه إذا ما لقيها، وهو لهذا واثق من أن حبه مشروع
 لا إثم فيه، ولا حدود عليه بسببه:

يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود
 لئن كان فى حب الحبيب حبيبه حدود لقد حلت على حدود
 ويقول قيس بن ذريح مصورا ذلك الصراع العنيف بين الجسد والروح
 الذى يملأ عليه أرجاء نفسه:

تتوق إليك النفس ثم أردّها حياءً، ومثلّى بالحياء حقيقاً
أذود سَوَامَ النفس عنك، وماله على أحد إلا عليك طريق
إنه يعاني صراعاً نفسياً عنيفاً بين رغبات جسده التي تغريه عليها
النفس الأمارّة بالسوء، وبين مثاليته الخلقية التي ترده عنها، وإنها لرغبات
جامحة تتطلق في أعماقه كما ينطلق السوام في المرعى، ولكن حبه
العذرى يقف دونها ليصدها ويكيح جماحها. إنه يسجل هنا انتصار الروح
على الجسد، أو هزيمة النفس الأمارّة بالسوء أمام المثالية الخلقية التي يؤمن
بها، ويتخذ منها عقلاً يقيد سوام نفسه، ويحول بينه وبين الانطلاق
والجموح والتمرد.

ويذكر الرواة في أحاديثهم عن هؤلاء العذريين أخباراً كثيرة عن هذه
العفة وهذا الطهر، ويصفون لقاء جميل وبثينة في أحضان الليل بعيداً عن
أعين الرقباء، وكيف كانا يقضيان الوقت يسألها عن حالها وتسأله عن
حاله، وتستتشفه ما قال فيها من شعر فينشدها، "ولا يزالان يتحدثان، لا
يقولان فحشاً ولا هُجْراً، حتى إذا قارب الصبح ودّع كل منهما صاحبه
أحسن وداع، وانصرفا وكلّ منهما يمشى خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى
يغيبا". وفي اللحظات الأخيرة من حياة جميل، وهو فوق ذلك المعبر الضيق

الذى يفصل بين شط الحياة وشط الموت، أقسم إنه ما وضع يده على بثينة لريبة، وإن أكثر ما كان منه أن يسند يدها إلى فؤاده يستريح ساعة.

فى ظل هذه العفة وهذا الطهر قضى العذريون حياتهم يعانون حرماناً شديداً، وهو حرمان كانت تزيد من حدته تلك العقبات التى كانت تعترض دائماً طريق حبهم، وتحول دون تحقق الأمل المشروع الذى كان أمنية تراود نفس كل واحد منهم. وعلى قسوة هذا الحرمان لم يفكر العذريون فى السلو والنسيان أو التماس المتعة فى حب جديد، بل ربما كان غريباً أن يدفعهم هذا الحرمان إلى التشبث بالأمل الضائع، والوفاء للحب اليائس، وترويض النفس على الرضا والصبر، مؤمنين جميعاً بفكرة هذا البيت الذى يُنسب مرة لقيس بن ذريح ومرة لقيس بن الملوّح:

وقد يجمع الله الشئتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ومرة أخرى يبرز الصراع فى مآسى الحب العذرى، ولكنه فى هذه المرة صراع بين الأمل واليأس، وهو صراع كان يملأ على العذريين نفوسهم بالحيرة والقلق والاضطراب. يقول قيس بن الملوّح مصوراً هذا الصراع بين اليأس الذى يميته، والأمل الذى يحييه:

ألقي من اليأس تاراتٍ فتقتلنى وللرجاء بشاشات فتُحيينى

وقد حاول العذريون أن يحلوا مشكلة هذا الصراع بترويض نفوسهم على الرضا بالحرمان، وهو رضا أحال حياتهم وهما كاذباً، وسراباً خداعاً، وأحلاماً لا تقوم على أساس من الواقع العملي الذي تقوم عليه حياة غيرهم من الناس. يقول جميل معبراً عن هذه الفكرة، فكرة الرضا بالحرمان، والقناعة بالوهم الكاذب الخداع:

وإني لأرضى من بئينة بالذى لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا، وبأن لا أستطيع، وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله
ويقول قيس بن ذريح مصوراً كيف يروض نفسه على الرضا بالحرمان
الذى فرض عليه، والتشبث بالآمال الضائعة التى أفلتت منه:

إن تك لبنى قد أتى دون قريبها حجاب منيع ما إليه سبيل
فإن نسيم الليل يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ونعلم أننا بالنها نقيـل
وتجمعنا الأرض القرار، وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول
إلى أن يعود الدهر سَلْماً، تَرائتَ بَغَاها عندنا وَذُحُول^(١)

^(١) الزات جمع ترة، والذحول جمع ذحل، وكلاهما بمعنى التار.

وبغاه: طلبها.

لقد تصور هؤلاء العذريون مشكلتهم على أنها قدر مقدور قضاء الله عليهم فلا يملكون معه إلا الصبر عليه والرضا به.

يقول جميل معبراً عن هذه القدرية المحتومة:

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة حبيب إليه فى ملامته رشدى
فقال: أفق، حتى متى أنت هائم ببثثة فيها لا تعيد ولا تبدى؟
فقلت له : فيها قضى الله ما ترى على، وهل فيما قضى الله من رد؟
فإن يك رشدا حبها أو غواية فقد جئته، ما كان منى على عمد
لقد لج ميثاق من الله بيننا وليس لمن لم يوف لله من عهد

إنه لم يعد يملك من أمر نفسه شيئاً، لقد قضى الله عليه هذا الحب، ولا راد لقضائه، إنه قدر مقدور لا يملك له دفعاً ولا ردّاً.

ومع ذلك لم يفلح العذريون فى حل مشكلة هذا الصراع فى نفوسهم، أو إقناع أنفسهم بأن المسألة قدر مقدور لا يملكون معه شيئاً، أو ترويضها على الرضا بالحرمان الذى فرض عليهم، وإنما كانت كلها محاولات يحاولونها، قد ينجحون فيها فى بعض الأحيان، ولكنهم فى أكثر الأحيان كانوا يخفقون ، فنرى فى شعرهم الشكوى الصارخة، والأحزان التى يعجزون عن إخفائها، والدموع التى لا يملكون لها كتماناً، والسخط الذى لا يقدرّون على التخلص منه.

وشعر العذريين جميعاً مطبوع كله بهذا الطابع الحزين الباكي، حتى
ليعد هذا الطابع من أقوى طوابعه المميزة وأعمقها. يقول قيس بن
الملوح مصوراً هذا السخط الذي تنوء به نفسه الحزينة المتمردة:

خليلى، لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى، وابتلانى بحبها فهلاً بشئ غير ليلى ابتلانيا
ويقول جميل مصوراً أحزانه الطاحنة التى تحطم نفسه تحطيماً حتى
ليوشك أن ينهار تحت وطأتها:

وما ذكرتك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا علتى عبرة واستكانة وفاض لها جار من الدمع يُذرف
تعلقتها، والنفس منى صحيحة فما زال ينمى حبّ جمل وتضعف^(١)
إلى اليوم حتى سلّ جسمى وشفنى وأنكرت من نفسى الذى كنت أعرف^(٢)

ويقول قيس بن ذريح مصوراً عجزه عن نسيان لبنى، وكيف يخونه
الصبر كلما مرت به ذكراها:

أريد سلوا عن لبنى وذكرها فيأبى فؤادى المستهام المتئّم
إذا قلت أسلوها تعرّض ذكرها وعاودنى من ذاك ما الله أعلم

^(١) ينمى : يزيد. وجمل هى بثينة . والضمير فى تضعف يعود على النفس.

^(٢) شفنى : أهزلى.

صحا كل ذى ود علمتُ مكانه سوى فإنى ذاهب العقل مغرم
ويقول أيضاً مصوراً محاولاته السلوان، وكيف ترده عنها نفسه الوالهة
ودموعه المهرقة، حتى لتصبح هذه المحاولات تكليفاً لنفسه فوق ما تطيق.
ففى أعماقه نار لا تخدم ولا تكف عن التأجيج والتوهج:

وَحَدَّثْتَنِي يَا قَلْبُ أَنْكَ صَابِرٌ على البين من لبنى فسوف تذوقُ
قمتُ كمداً أو عش سقيماً فإنما تكلفنى ما لا أراك تطيق
إذا أنا عزيت الهوى أو تركته أنت عبرات بالدموع تسوق
كان الهوى بين الحيازيم والحشا وبين التراقي واللهة حريق^(١)
أريد سلوا عنكم فيردنى عليك من النفس الشعاع فريق^(٢)

وفى ظل هذا الصراع الحاد بين اليأس والأمل، وفى ظل هذه المحاولات
السلبية للسلو والنسيان عاش العذريون مخلصين لمحبياتهم. لقد وهب كل
منهم حياته لواحدة أخلص لها حبه ولم يشرك به حياً آخر، لا يعدوها إلى
غيرها، ولا يصرف هواه إلى سواها، ولا يُثقل فؤاده حيث شاء من الهوى،

^(١) الحيازيم : جمع حيزوم وهو وسط الصدر وما يشد عليه الحزام. والتراقي: عظام الصدر
العليا، جمع ترقوة.

^(٢) النفس الشعاع: التى فرّقها الحزن وذهب بها كل مذهب.

وإنما يعيش حياته - على ما فيها من حرمان وأحزان - متعبداً في محرابها، موحداً بحبها، فقد ارتبطت حياته بها، وأصبح كل شيء فيها ملكاً لها، واستحالت أيامه ولياليه ذكريات وأحلاماً استقرت في شعوره وفي لاشعوره فهو يعيش بها ولها وعليها، ولم يُعَد في قلبه متسع لمحبة أخرى بعد أن ثبت حبها فيه "كما ثبتت في راحتين الأصابع" - كما يقول قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح على اختلاف في نسبة البيت. فالتوحيد سمة أخرى من سمات الحب العذري البارزة المميزة، فلم يُعرف عن أي عاشق من هؤلاء العذريين أنه أشرك في حبه أو أحب أكثر من واحدة منذ النظرة الأولى، أو منذ السهم الأول الذي جمع به طفل الحب الخالد بين قلوبهما. يقول قيس بن الملوح معبراً عن هذا التوحيد الذي محا من قلبه كل شرك كان فيه من قبل:

محا حبها حبّ الألى كنّ قلبها وحلت مكاناً لم يكن حلّ من قبلُ

ويقول جميل مصوراً إخلاصه لصاحبه الذي يحمله في قلبه لها حتى ليصرفه عن كل فتاة غيرها مهما تحاول إغراءه أو التقرب إليه بما تبذله له من متع لا ينالها من صاحبه:

فلربّ عارضة علينا وصلها بالجد تخاطبه بقول الهازل

فأجبتها بالقول بعد تستر: حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر قلامة فضلا وصلتك أو أتتك رسائلي
ويقلن: إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اجتتاب الباطل؟
وَلَبَّاطِلٌ مِّمَّنْ أَحَبَّ حَدِيثَهُ أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الْبَغِيضِ الْبَاطِلِ
ليُزِلَنَّ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلَنِي وَإِذَا هَوَيْتَ فَمَا هَوَايَ بِزَائِلِ

إنها فكرة الحب للحب آمن بها هؤلاء العذريون إيماناً تغلغل في أعماق
قلوبهم، فتحول الحب عندهم إلى وسيلة وغاية معاً، أو قل تحول إلى حب
مثالي مجرد عن الغايات والأغراض.

وفي ظل هذه المثالية المجردة عاش العذريون في صراع لا تهدأ ناره،
ولا يخمد أواره، بين العالم الواقعي العملي الذي يعيشون فيه، والعالم
المثالي النظري الذي يعيشون له، وهو عالم أفلح العذريون فعلاً في خلقه
لأنفسهم، ولكنهم عاشوا فيه يكابدون أحزانهم القاتلة وهمومهم السود،
ويعانون اضطراباً لا يرون في ظلماته سبيلاً إلى الاستقرار، وحيرة لا
يعرفون بين أعاصيرها شطاً للنجاة. يقول قيس بن الملوح مصوراً هذا
الاضطراب وهذه الحيرة أدق تصوير وأروع:

فوالله ثم الله إنني لدائبٌ أفكر ما ذنبي إليك وأعجب؟

والله ما أدري عَلَامَ قَتَلْتَنِي؟ وأىّ أمورى فيك يا لَيْلَ أركب؟
 أأقطع حبل الوصل فالموت دونه؟ أم اشرب رَنَقاً منكم ليس يُشْرَبَ؟^(١)
 أم اهرب حتى لا أرى لى مجاوراً؟ أم اصنع ماذا أم أبوح فساغلب؟
 فأيهما يا لَيْلَ ما ترتضيّنه؟ فأنى لمظلوم، وإنى لمعتب

إنها الحيرة والاضطراب والقلق النفسى عبر عنها قيس هذا
 التعبير الرائع، معتمداً على هذا الأسلوب الاستفهامى الحائر، وهذه
 التقسيمات المضطربة القلقة لوجوه المشكلة التى يعانىها كما يعانىها
 غيره من أصحابه العذريين.

والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع الدائب المتصل الذى لا يهدأ ولا يستقر
 أسقام وأدواء وأوجاع وعلل تصطلح على العاشق المسكين، فينوء تحت
 وطأتها جسده الذى أهزله الضنى، وأضناه الهزال، وتتهار معها أعصابه
 التى أرهقها الصراع النفسى الذى لا ينتهى إلى نهاية مريحة، والتى
 أجهدتها التفكير فى مشكلات معقدة لا حل لها. ثم تكون النهاية المحتومة
 التى لا مفر منها، الموت، فيودع العاشق حياته على أمل فى أن يجمع الله

^(١) الرنق: الماء الكبر.

بينه وبين صاحبتة بعد الموت، عسى أن يتحقق له في العالم الخالد ما لم يتحقق له في العالم الفاني.

أمنية تمنّاها كل عاشق عذرى، وأغمض عينيه الإغماضة الأبدية على خيال جميل منها . يقول عروة بن حزام:

وإني لأهوى الحشر إذ قيل إنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان
فياليت محيانا جميعاً، وليتنا إذا نحن متنا ضمناً كفنّان
ويقول جميل:

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى ببثنة في أدنى حياتي ولا حشري
وجاور إذ ما متُّ بيني وبينها فيأ حبذا موتى إذا جاورت قبري
ويقول أيضاً:

ألا ليتنا نحيا جميعاً، وإن نمُتْ يُؤآف ضريحى فى الممات ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سؤى عليها صفيحها^(١)

^(١) الصفيح هنا حجارة القبر.

٤

انتشر هذا اللون من الحب العفيف الذى أطلق عليه الحب العذرى" فى البادية العربية أيام بنى أمية انتشاراً واسعاً لفت أنظار الباحثين فخيّل لهم أنه نتاج أموى خالص، وثمره الحياة الأموية وحدها، وردوا ظهوره إلى الإسلام وما غيره من المثالية الخلقية عند العرب.

والتعليل والنتيجة كلاهما خاطئ، فهذا اللون من الحب تمتد جذوره إلى العصر الجاهلى، فهو نتاج البادية العربية منذ هذا العصر، وثمره الحياة الاجتماعية التى كانت تعيشها القبائل العربية فيه. والإسلام لم يخلق هذا الحب من عدم، والحياة الإسلامية الجديدة لم تكن السبب فى نشأته، لسبب بسيط جداً وهو أن هذا الحب كان موجوداً فى البادية العربية من قبل ظهور الإسلام، وإنما كانت هذه الحياة الإسلامية سبباً فى أن يصبح هذا اللون من الحب اللون الأول فى لوحة الحياة البدوية الإسلامية، فالإسلام هو الذى حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية، فلم يجدوا لعواطفهم متفهماً إلا فى هذا الحب العفيف الذى لا يحرمه الدين الجديد ولا ينكره.

فكل من يقرأ الغزل الجاهلى، ويتتبع الحياة الاجتماعية فى هذا العصر، يستطيع أن يتبين الاتجاهين الأساسيين من اتجاهات الحب اللذين أشرنا

إليهما في صدر هذه الصفحات: الاتجاه الحسى الذى تتعدد فيه المعشوقات، والاتجاه الروحى الذى تتوحد فيه المحبوبة.

فإلى جانب امرئ القيس والأعشى وأضرابهما ممن يمثلون الاتجاه الحسى اللاهى، عرف المجتمع الجاهلى فى باديته ومدنة طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه الروحى العفيف فى نفس الإطار العام الذى دارت فيه قصص العذريين الأمويين، واحتفظ رواة الأدب العربى بكثير من أخبارهم وشعرهم، وأطلقوا عليهم اسم " المتيّمين"، تمييزاً لهم من سائر الشعراء العشاق الذين يمثلون الاتجاه الآخر، وربطوا بين كل متيم وصاحبه التى عُرف بها، تماماً كما فعلوا مع " العذريين" فى العصر الأموى: فالمرقش الأكبر وأسماء، المرقش الأصغر وفاطمة، والمخبّل وميلاء، وعبد الله بن العجلان وهند، ومالك بن الصمصامة وجنوب، وقيس بن الحذادية ونعم، وعبد الله بن علقمة وحبيشة، وعمرو بن كعب وعقيلة، ثم أبعدهم صيتاً وأشدّهم ذكراً عنّرة وعيلة.

وتوشك الصورة العامة لقصص هؤلاء " المتيّمين" أن تكون نفس الصورة التى رأيناها فى قصص " العذريين " الأمويين. فهى قصة حب متشابهة إلى حد بعيد، تكاد تختلف بين عاشقين وعاشقين إلا فى التفاصيل، أما الصورة العامة فهى هى:

شباب يحب ابنة عمه فى أكثر الأحيان، وقد يحب فتاة من غير قبيلته فى بعض الأحيان، ثم يطلب يدها من أهلها فتقف عقبة من العقبات فى طريقه، وقد يتحقق أمله ثم تنشأ عقبات تفرق بينهما، فيعيش بقية حياته وقد سيطر عليه خيال محبوبته سيطرة لا يملك معها خلاصاً أو فكاكاً، فلا يجد أمامه إلا الشعور بنفس فيه ملء صدره ليخفف عن نفسه بعض ما تنوء به من الحرمان اليأس الذى يعانيه، والخيال الواهم الذى يعيش فيه، والأمل الحالم الذى يعيش له، والأحزان السود التى تستبد به، والخنين الجارف الذى يملأ عليه أرجاء نفسه. ووسط هذا الخضم المتلاطم من الآمال يحيا العاشق وكأنه ضائع فى هذه الحياة، أو كأنه فى حلم عميق مسيطر على مشاعره، متمسكاً بحبه الضائع، متشبثاً بمحبوبته التى أبنت الحياة أن تحقق أمله فيها، لا يدفعه شعوره بالحرمان واليأس إلى السلو والنسيان أو التماس السعادة فى حب جديد، لأنه يرى فى محبوبته مثله الأعلى فى الحياة، وإذا كان الواقع قد حال بينهما ففى عالم الأحلام والأوهام مجال لحياة لا يحول بينهما فيها حائل، ولا تملك أية قوة فى الأرض أن تفرق بينهما. ثم تكون النهاية مأساة حزينة فى أكثر الأحيان، نرى فيها العاشق مشرداً فى الصحراء، يطوح به الحب فى أرجائها فلا تعرف مذهبته، أو نراه وقد استبد

به الحب، وسيطر على مشاعره، حتى اضطربت أعصابه، واختلط عقله، أو نراه معتلاً مدنفاً أضناه الوجد، وأسقمه الحزن، وأنواه الحرمان، وقد تكون النهاية في بعض الأحيان على غير هذه الصورة الحزينة، نرى فيها العاشق وقد تمالك نفسه بعد ضياع الأمل من يديه، واستطاع أن يتجلد للصدمة العنيفة التي حلت به، ولكن خيال محبوبته البعيدة لا يفارقه، وذكريات حبها بكل ما فيها من نعيم وشقاء، ومن وصل وهجر، ومن أمل ويأس، تعيش معه في قلبه الذي بين جنبيه، يداريها حيناً، ويصرح بها في أكثر الأحيان شعراً يفيض حزناً، ويقطر لوعة، ويسيل دموعاً، ويذوب حسرات. ثم ينتهي الأجل المكتوب، ويسدل الستار على المأساة الحزينة الباكية.

على هذه الصورة كانت مأساة المرقش الأكبر وابنة عمه أسماء، وهما من بكر بن وائل، وهى مأساة تشبهها إلى حد كبير مأساة عروة وغفراء التي شهدتها أرض عذرة في صدر العصر الإسلامي قبل أيام بنى أمية. أحب المرقش أسماء وهى صغيرة وأحبه، ونما الحب في قلوبهما، ثم خطبها إلى أبيها، فأخذ يماطله ويعدده فيها المواعيد، ولعله لم يكن يراه كفوّاً لابنته، إذ يذكر الرواة أنه قال له: لا أزوجك حتى تُعرّف بالبأس وتزور الملوك. وكان أبوها عوف بن مالك من فرسان بكر المعدودين، وكذلك كان

أخوه عمرو بن مالك، وهو الذى أسر مهلهل بن ربيعة أخا كليب فظل فى أسره حتى مات.

وانطلق المرقش بينى مستقبله ويرفع من شأنه حتى يكون جديراً بابنة عمه المحبوبة، فاتصل ببعض الملوك يمدحهم، وينال جوائزهم. ثم عاد إلى وطنه بعد سنين ليفاجأ بنبا أذهله وجعل كل آماله تنهوى فى يأس قاتل وحزن مميت. لقد كان فى انتظاره نبأ موت صاحبتة التى تغرب عن وطنه تلك السنين من أجلها، ودلوه على قبر قالوا له إنه قبرها. وارتبطت أيامه بهذا القبر يندب عنده حظه، ويبكى آماله، ويذوب كمداً وحزناً فوق أحجاره الصامتة. ثم تكون المفاجأة المذهلة حقاً، لقد ترمى إلى سمعه ذات مرة أن أسماء لم تمت، وإنما تزوجها أحد سادة مراد الأثرياء فى أثناء غيبته بعد أن أطمع أباه فى ماله الكثير، وأن نبأ موتها مفتعل، افتعله إخوته ليخفوا عنه الحقيقة المرة، ويتفادوا ما تجره وراءها من أحداث.

وينطلق المرقش إلى ديار مراد فى صحبة عبيد له، ولكن داء عضالا يحل به فى الطريق، ويبأس منه العبدان، ويقطعان الأمل من شفائه، ويظنان به الموت، فيخلفانه فى كهف بأرض مراد، ويعودان إلى أهله ليعلنا لهم أنه قد مات. ثم يتبين أخ له الحقيقة، لقد سجل المرقش قصته مع العبيدين فى أبيات كتبها على رحله فقرأها أخوه الذى ينطلق نحو أرض

مراد باحثاً عنه بعد أن يقتل العبدین. وهناك عند الكهف يعلم أنه قد حُمِلَ إلى أسماء. لقد وردت على الكهف غنم عرف المرقش من راعيها أنها غنم المرادی زوج أسماء، فاحتال على الراعى حتى طرح خاتمه فى اللبن الذى تحمله إلى أسماء جاريته كل مساء.... نفس الأسلوب الذى اتبعه عروة بعد ذلك حين نزل ضيفاً على زوج عفراء بالشام. وتعرف أسماء خاتم حبيبها القديم، وتعرف من الراعى موضعه بالكهف، وأنه تركه يعانى سكرات الموت، فتسرع هى وزوجها إليه ليعودا به إلى بيتهما.

وفى أرض مراد حيث استقرت حبيبته يلفظ المرقش أنفاسه الأخيرة بعد أن يودع الحياة بأبيات من الشعر يصور فيها حيرته، وآماله الضائعة، وماضيه الجميل الذى قطعت عهوده ومواريثه إلى الأبد.

وعلى هذه الصورة أيضاً كانت مأساة عمرو بن كعب بن النعمان الملك وابنة عمه عقيلة. نشأ معها فى بيت أبيها بعد وفاة أبيه، وربط الحب بين القلبين الصغيرين، حتى إذا ما كبرا تقدم إلى أبيها يطلب عونه لما كان بين أسرتيهما من صلة. ثم يبلغه أن عمه زوج عقيلة لأحد بنى فزارة، وتكون صدمة له لا تقوى على احتمالها أعصابه فتتهار، وينطلق إلى الصحراء ذاهلاً عن كل شئ ليهيم على وجهه فى إقليم اليمامة، وقد شَدَّ بصره إلى السماء، حتى تدركه منيته فى تيه لم يُعرَف مكانه فيه. وفى بيت الفزارى

تعيش عقيلة- كما يذكر الرواة - عزراء، وتتهار أعصاب زوجها، فيخرج هو أيضاً إلى الصحراء هائماً على وجهه فلا يُدرى أين مذهبه.

وتعود عقيلة إلى بيت أبيها تندب حظها، وتبكي مأساتها، وتدب الأدواء والأسقام في جسدها حتى تذويه وتضنيه، ثم يضمها الموت إليه لتحلق بحبيبها في العالم الآخر.

وعلى نحو من هذه الصورة أيضاً كانت مأساة عبد الله بن علقمة وابنة عمه حبيشة، وكلاهما من بنى عامر بن عبد مناة. ربط الحب بين قلبيهما وهما صغيران، فقد خرجت به أمه وهو غلام لتزور أم حبيشة وكانت جارة لها، وهناك رآها فأعجبته، وانطلقت سهام الحب لتجمع بين القلبين في قصة غرام عنيف لم تقلح جميع المحاولات التي قام بها أهلها وأهلها في وضع حد له. لقد هام كل منهما بصاحبه، وأخذ يقول فيه الشعر، وكان كلاهما شاعراً، وحال أهلها بينهما، ولكن هذا لم يزد هما إلا غراماً، فأخذا يتبادلان الرسائل والأشعار. ثم تتعرض قبيلتهما لغزوة قام بها خالد بن الوليد رضي الله عنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة. ويقع ابن علقمة أسيراً في أيدي المسلمين، وتقع حبيشة كذلك، ويساق هو لتُضرب عنقه، فيطلب أن يراها قبل أن يلقى مصرغه، ويتناول

يدها فى يده وهو ينشد لها شعره، حتى إذا ما ضربت عنقه وضعت حبيشة رأسه فى حجرها، وجعلت ترشفه وتبكيه بأبيات لها ظلت ترددها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

وعلى نحو من هذه الصورة العامة كذلك كانت مأساة عبد الله بن العجلان وهند، وكلاهما من تهذ من قضاة. وهى أقرب مأساة جاهلية إلى مأساة قيس بن ذريح ولبنى، وأشدّها شبيهاً بها. رأى عبد الله هنداً على بعض المياه فأحبها، ثم مضى إلى أبيها فخطبها، وتحقق له أمله فتزوجها، وعاش معها بضع سنين كأسد ما يكون حبيبان ربط بينهما رباط الزوجية المقدس. ولكن القدر أبى عليهما السعادة التى نعمان بها، فقد كانت هند عاقراً، وكان عبد الله وحيد أبويه، وكان أبوه سيّداً من سادات قومه المعدودين، ومن أكثرهم مالاً وأوسعهم ثراء، فطلب إليه أن يطلقها ويتزوج غيرها عسى أن ينجب منها من يحفظ على الأسرة مالها وكيانها. وأبى عبد الله، وتخرجت الأمور بينه وبين أبيه الذى أقسم أن لا يكلمه حتى يطلقها، وتمسك عبد الله بزوجه الحبيبة، ولكن أباه جمع عليه أعمامه وأبناء أعمامه، وما زالوا به حتى ضعف أمامهم فانفصل عنها. وما إن نفذ السهم حتى أسف عليها، وندم على فراقها، واشتدّ حزنه وجزعه من أجلها. ثم تزوجت هند فى بنى نمير، فضاقت السبل فى وجه عبد الله، وانهارت أعصابه، واصطلحت على جسده العلل والأدواء. وعرض عليه أهله فتيات

الحى لعل إحداهن تعجبه فتتسبه صاحبتة الأولى، ولكنه رفض الزواج. وقضى عبد الله بعد ذلك حياته يبكى حبه القديم، وفردوسه المفقود، وسعادته الضائعة، حتى مات حزناً عليها، وأسفاً على أمل كان بين يديه ثم فرط فيه فضاغ منه إلى الأبد.

وأشهر قصص " المتيمين " الجاهليين قصة عنتره وعبله، وهى قصة تستمد شهرتها من ناحيتين: من شهرة صاحبها الفارس الشاعر البطل، ثم من القصة الشعبية التى دارت حولها.

وعلى الرغم من شهرة هذه القصة، وعلى الرغم من ضخامة القصة الشعبية التى دارت حولها وكثرة التفاصيل والحواشى بها، فإن المصادر القديمة لا تمدنا بكثير من تفاصيلها، ولكنها - فى إطارها العام - قصة ثابتة لا شك فيها بدلالة شعر عنتره الذى يفيض بأحاديث حبه وحرمانه.

نشأ عنتره العيسى من أب عربى هو عمرو بن شداد، وكان سيداً من سادات قبيلته، وأم أجنبية هى زبيبة الأمة السوداء الحبشية، وكان أبوه قد سبأها فى بعض غزواته. وسرى السواد إلى عنتره من أمه، ورفض أبوه الاعتراف به، فاتخذ مكانه بين طبقة العبيد فى القبيلة، خضوعاً لتقاليد المجتمع الجاهلى التى تقضى بإقصاء أولاد الإماء عن سلسلة النسب الذهبية التى كان العرب يحرصون على أن يظل لها نقاؤها وعلى أن يكون

جميع أفرادها ممن يجمعون الشرف من كلا طرفيه: الآباء والأمهات، إلا إذا أبدى أحد هؤلاء الهجناء أمتيازاً أو نجابة فإن المجتمع الجاهلى لم يكن يرى فى هذه الحالة ما يمنع من إلحاقه بأبيه. وحانت الفرصة لعنترة فى إحدى غارات طيئ على عيس، فأبدى شجاعة فائقة فى رد المغيرين، وانتزع بهذا اعتراف أبيه به، واتخذ مكانه فارساً من فرسان عيس الذين يشار إليهم بالبنان.

ووقف طفل الحب الخالد يلقى سهامه النافذة ليجمع بين قلب عنترة وقلب ابنة عمه عبلة بنت مالك . ويتقدم عنترة إلى عمه يخطب إليه ابنته، ويقف اللون والنسب مرة أخرى فى طريقه، فقد رفض مالك أن يزوج ابنته من رجل يجرى فى عروقه دم غير عربى، وأبت كبرياؤه أن يرضى بعبد أسود- مهما تكن شجاعته وفروسيته- زوجاً لابنته العربية الحرة النقية الدم الخالصة النسب، ويقال إنه طلب منه- تعجيزاً له وسدّاً للسبل فى وجهه- ألف ناقة من نوق الملك النعمان المعروفة بالعصافير مهرأ لابنته، ويقال إن عنترة خرج فى طلب عصافير النعمان حتى يظفر بعبلة، وإنه لقى فى سبيلها أهوالاً جساماً، ووقع فى الأسر، وأبدى فى سبيل الخلاص منه بطولات خارقة، ثم تحقق له فى النهاية حلمه، وعاد إلى قبيلته ومعه مهر عبلة ألفاً من عصافير الملك النعمان. ولكن عمه عاد يماطله ويكلفه من أمره شططا، ثم فكر فى أن يتخلص منه، فعرض ابنته على فرسان القبائل

على أن يكون المهر رأس عنتره، ثم تكون النهاية التى أغفلتها المصادر القديمة وتركت الباحثين عنها يختلفون حولها، فمنهم من يرى أن عنتره فاز بعبلة وتزوجها، ومنهم من يرى أنه لم يتزوجها، وإنما ظفر بها فارس آخر من فرسان العرب.

وفى أغلب الظن أن عنتره لم يتزوج عبلة، ولكنه قضى حياته راهباً متبتلاً فى محراب حبها، يغنى لها ويتغنى بها، ويمزج بين بطولته وحبه مزاجاً رائعاً جميلاً. وهو يصرح فى بعض شعره بأنها تزوجت وأن زوجها فارس عربى ضخم أبيض اللون، يقول لها فى إحدى قصائده الموثوق بها التى يرويهها الأصمعى الثقة:

إما ترىي قد نحلّت ومن يكن غرضاً لأطراف الأسنة ينحل
فلربّ أبلج مثل بعلك بادن ضخم على ظهر الجواد مهيل
غادرتّه متغفراً أوصاله والقوم بين مجرّح ومجذل^(١)

لقد تزوجت عبلة من غير عنتره بعد ذلك الكفاح الطويل الذى قام به من أجلها، وأبى القدر أن يحقق للعاشقين حلمهما الذى طالما عاشا فيه. وعاش عنتره بعد ذلك عمراً طويلاً يتذكر حبه القديم، ويحن إلى أيامه

^(١) غرضاً يعنى هدفاً. أبلج أبيض مشرق الوجه. مهيل : كثير اللحم مملى الجسم. مجدل:

قتيل.

الخالية، ويشكو حرمانه الذى فرضته عليه أوضاع الحياة وتقاليد المجتمع، وقد طوى قلبه على أحزانه ويأسه، وألقى الرماد على الجمرة المتقدة بين جوانحه، وهو رماد كانت ذكريات الماضى تلح عليه من حين إلى حين، فتكشف عن الجمرة التى لم تتطفئ جذوتها من تحته، حتى ودّع الحياة، وأسدل الموت الستار على قصة حبه الخالدة.

على نحو من هذه الصور كانت قصة الحب الخالدة التى ربطت بين كل قلبين من قلوب هؤلاء "المتممين" الذين أفنوا عمرهم شموعاً تحترق فى هيكल الحب، حيث تعلّق كل منهم بمثل أعلى رآه فى حبيبة أخلص لها، وقضى حياته يسبح لها وحدها لا يشرك بها حبيبة أخرى، وهى قصة لا تختلف فى شئ عن قصة الحب الخالدة التى رأيناها عند "العذريين" الإسلاميين، حتى ليصح القول إن ظاهرة الحب العذرى بعد ظهور الإسلام ليست إلا امتداداً طبيعياً "للمتممين" الجاهليين.

مع كل قصة من قصص هؤلاء " المتيمين " وصل إلينا شعر بسجلها، ويتغنى بها، ويعبر عن عاطفة الحب الصادقة الثابتة التي عاش لها هؤلاء العشاق تعبيراً على حظ غير قليل من الرقة والصفاء، ويصور ذلك العالم الخيالى الحالم الذى عاشوا فيه بما يتنازع من آمال وآلام، وبما يضطرب فيه من حيرة وبأس وقلق، وحرمان وحنين وأحزان، وتشبث بالمثل الأعلى البعيد المنال الذى حالت الحياة دون الوصول إليه.

ومن الحق أن مجموعة الشعر التى وصلت إلينا من هؤلاء المتيمين قليلة بالنسبة لما وصل إلينا من شعر العذريين، ولكن هذا شأن الشعر الجاهلى كله، ذلك الشعر الذى لم يصل إلينا منه - كما يقول القدماء - إلا أقله. ومن الحق أيضاً أن هذه المجموعة لا تمثل قصة الحب التى عاشها أصحابها بكل جوانبها وتفصيلها كما نرى فى شعر العذريين الأمويين، ولكن هذا يرجع - فى أغلب الظن - إلى ضياع كثير منها. ومن الحق بعد ذلك أن المستوى الفنى لشعر المتيمين - إذا استثنينا عنتره - لا يصل إلى تلك القمة الفنية العالية التى وصل إليها شعر العذريين، ولكن هذا لا يرجع إلى ضعف العاطفة عند المتيمين عنها عند العذريين، فالمستوى العاطفى عند كليهما واحد، ودرجة الانفعال فى نفوس الطائفتين واحدة، ولكنه يرجع إلى

سنة التطور، فالمتميمون الجاهليون هم طليعة الاتجاه، صاغوا شعرهم على غير نماذج سابقة، ثم خلفوه لمن جاء بعدهم من العذريين نماذج يحتذونها ويطورونها وينهضون بفنهم الشعري على مثالها. وفيما عدا ذلك فشرع المتممين في اتجاهه العام وفي صورته الثابتة هو نفسه شعر العذريين، أو - بعبارة أدق - هو الخطوة الأولى في هذا الاتجاه الذى سار فيه العذريون بعد ذلك، أو هو الخطوط المميّزة لهذه الصورة التى استغلها العذريون واعتمدوا عليها فى تطوير فنهم ، والنهوض به، والوصول به إلى تلك القمة العالية التى وصلوا إليها. فالاتجاه العام لشعر المتممين هو ذلك الاتجاه الصراعى الذى يسجل جوانب المأساة التى يعيشها أصحابه، والذى رأيناه من قبل فى شعر العذريين، والصورة الثابتة له هى تلك الصورة المثالية التى يعيش أصحابها فى عالم خلقوه لأنفسهم، وهى نفس الصورة التى رأيناها أيضاً عند العذريين.

يقول المرقش الأكبر مصوراً حيرته النفسية وما يعانيه معها من قلق وعذاب وألم وهموم:

أَغَالِيكَ الْقَلْبُ اللُّجُوجَ صَبَابَةً وَشَوْقاً إِلَى أَسْمَاءٍ أَمْ أَنْتِ غَالِيَةٌ؟
يَهْيِمُ وَلَا يَغْنَى بِأَسْمَاءٍ قَلْبُهُ كَذَلِكَ الْهَوَى إِمْرَارُهُ وَعَوَاقِبُهُ
وَأَسْمَاءُ هَمِّ النَّفْسِ إِنْ كُنْتَ عَالِماً وَبَادَى أَحَادِيثِ الْفَوَادِ وَغَائِبُهُ

إذا ذكرتها النفس ظَلْتُ كأننى يززعنى قفقاف ورْد وصاليه^(١)

فهو محير القلب فى حبها، يعانى من ذلك الصراع الحاد العنيف الذى يعانى منه كل عاشق من المتيمين ومن العذريين. لقد أصبحت أسماء كل شىء فى حياته، إنها أمله الذى يرتجيه ونجوى فؤاده التى يعيش معها، وإنه ليذكرها فيضطرب جسده وتأخذه الرعدة من كل أطرافه كأنما مسته حمى شديدة، إنها نار تحرق جوانحه، ولكنه - مع ذلك - يحبها ولا يستطيع نسيانها أو السلو عنها، لقد غلبه حبها وانتصر عليه فى ذلك الصراع المستعربين عقله وقلبه، وهو صراع ليست له دائماً سوى نتيجة واحدة، هى غلبة القلب وانتصاره، ووقوف العاشق عاجزاً أمام سهم الحب تنهال عليه من كل جانب فلا يملك لها دفعاً ولا ردّاً، تلك السهام التى صور ابن العجلان فعلها فى نفسه فى هذين البيتين:

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة إذا شئتُ لمساً للسماء لمسّتها
أنتنى سهامٌ من لحاظٍ فأرشفّت بقلبي، ولو أسطيع ردّاً رددتها

إنها شكوى العاشق الجريح الذى تتساقط عليه سهام العيون لتستقر فى قلبه، بل هى وثيقة استسلام للمحبوبة يوقعها العاشق معترفاً بهزيمته فى

(١) إمرار الهوى: مرارته أو شدته. الورد، بكسر الواو، الحمى.

والقفقاف: الرعشة. والصالب: شدة الحرارة مع رعدة.

ميدان الحب بعد أن كان قبل لقائها شديد البأس بعيد الهمّة. لقد أصبح أسيراً
 فى يديها لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وهو أسر كان كل عاشق من المتيمين
 والعذريين على السواء يشعر بأنه يقضى فيه شبابه، بل حياته كلها، وليس
 له من أنيس فيه سوى ذكريات ماضيه يحملها إليه الليل على أجنحته
 الحالمة، فتذوب لها مهجته، وتسيل دموعه، على نحو ما يصور عمرو بن
 كعب فى هذين البيتين:

إذا جنّ ليلٌ فاضت العين أدمعاً على الخد كالغدران أو كالسحائب
 وما أسفى إلا على ذُوبٍ مهجتي ولم أدر يوماً كيف حال الحائب
 وكما كانت هذه الذكريات تُسيل الدموع من عيني عمرو على عقيلة،
 وتنتزع الزفرات الحارة من صدره، كانت تُدير بالمرقش الأصغر
 الأرض، وتشرده فى البلاد خلف محبوبته فاطمة التى لم يكن يرى فى
 النساء من تُسليه عنها أو تنسيه حبها:

صحا قلبه عنها على أن ذُكِرَ إذا خَطَرَتْ دارت به الأرض قائماً
 أفاطم لو أن النساء ببلدة وأنت بأخرى لا تُبْعُثُك هائماً
 لقد سيطر حبها على نفسه فهو لا يستطيع عنها بعداً، ولا يملك - إذا ما
 غابت عنه - عزاء يتسلى به عنها، ولا صبراً يخفف من أحزانه، يقول
 عبدالله بن علقمة:

إذا غِيَّيْتُ عَنى حَبِيشَةَ مَرَّةً من الدهر لم أملك عزاء ولا صَبْرًا

ومن هنا كان أشد ما يخشاه العاشق الفراق الذى يباعد بينه وبين محبوبته، بل يباعد بينه وبين الحياة، فإذا هو صريع أحزان تهصر فؤاده هصرًا، وهى أحزان كان قيس بن الحداية يتخيل قلبه تحت وطأتها كأنه بين شقين من عصا لا يزالان يضغطان فى قسوة وعنف حتى يقضيا عليه: كأن فؤادى بين شَقَيْنِ من عصا جذارَ وقوع البين، والبينُ واقعُ

ووسط هذا الخضم المتلاطم من الأحزان كانت أعصاب العاشق تتهار حتى ليتمنى أن يلقي الموت قبل أن يفرق البين بينهما، وما قيمة الحياة إذا ما استبدت بصاحبته النوى فخلَّفته وحيداً يستقبل أحزانه القاتلة وهمومه الطاحنة؟ يقول قيس أيضاً:

فليت المنايا صَبَحَتْنى عُدِيَّةً

بأسفل وادى الدَّوْح أن لا تلاقيا

إذا ما طواك الدهر يا أم مالك فشان المنايا القاصدات وشانها

ومع هذه الأحزان والهموم كان الحرمان الذى يقضى العاشق حياته وسط صحرائه المجربة القاحلة حيث لا ظل ولا ماء، وإنما سراب يترامى هنا وهناك يحمل معه أملاً خداعاً فى أن تجمع الحياة بينه وبين صاحبته فى يوم من الأيام، وهو أمل صورَه قيس أيضاً فى هذا البيت:

وإننى لعهد السود راع ، وإننى بوصلك ما لم يطوبنى الموت طامع
 إنه الأمل الحلو الذى كان يعيش عليه هؤلاء المتيمون، والذى كان
 يداعب نفوسهم الحزينة الضائعة فيرد عليها شيئاً من الرضا، ويكشف عنها
 شيئاً من ظلمات اليأس المتكاثفة حولها.

ومع ذلك لم يتحقق لأى عاشق من هؤلاء المتيمين هذا الأمل، وإنما
 ظلت المسألة منى يتمناها، وتحول الحياة بينه وبينها تاركة له اليأس
 والحرمان، وحسبه من الحب خيال يحيا فيه، وروهم يحيا عليه. إنه الحب
 المجرد من كل غرض، أو هو حب الحب للمحب الذى عزّ على عبدالله
 بن علقمة مخاطباً صاحبه حبشية:

ولم يك حبى عن نوال بذلته فيسألينى عنه التجهّم والهجرُ

إنه يحب فيها الحب نفسه، ولا يريد أن يخلط بهذا الهدف المجرد أى
 هدف آخر، وإنما يريد أن يكون حبه خالصاً لوجه الحب وحده فى العالم
 المثالى الذى خلقه لنفسه وارتضاه لها.

ويقف عنثرة بين هؤلاء المتيمين ممثلاً لمذهب خاص فى الغزل انفرد
 به، دفعته إليه ظروف حياته الخاصة، وطبيعة شخصيته المتميزة، فهو

عاشق متيم مثلهم، أحب واحدة وأخلص لها كما أحبوا وأخلصوا، وقضى حياته خلفها يعاني من اليأس الذي كانوا يعانون منه، ومن الحرمان الذي كانوا يعيشون فيه، واتخذ من شعره كما اتخذوا مجالاً يتنفس فيه، ويخفف عن نفسه ما تفيض به من أحزان وهموم، ولكنه -إلى جانب ذلك - فارس عيس الأول وحامي دمارها، فالفروسيّة مستقرة في أعماقه مقوماً أساسياً من مقومات شخصيته فلا يستطيع أن يفصل عنها لا في حياته ولا في شعره، فكما كان شعره مجالاً يتغنى فيه بحبه ولوعته، كذلك كان مجالاً يتغنى فيه بفروسيته وبطولته. ومن هنا امتزجت أحاديث الحب واللوعة بأحاديث الفروسيّة والبطولة في شعره، وأضفى الحب اليأس المحروم على فروسيته ألواناً من الوجد واللوعة، كما أضفت فروسيته العاملة البناءة على حبه ألواناً من القوة والكبرياء والحياة فجاء شعره مزاجاً طريفاً من اللونين، ونموذجاً فريداً في الشعر الجاهلي.

وهب عنثرة حياته وفنه لشيئين: لفروسيته وبطولته من ناحية، ولعبله وحبها من ناحية أخرى، وعاش يوقع على هذين الوترين ألحاناً رائعة طريفة يمتزج فيها الحب بالحرب، واليأس بالأمل، والرقّة بالقوة، والضراعة بالكبرياء، والدماء التي تنزف من قلبه بالدماء التي تنزف من قلوب أعدائه، واتخذ من عبلة سيده الأولى، يضع بين يديها - أو تحت أقدامها - مفاخره وأمجاده، ويقدم لها شجاعته وفتوته، تحية وقربانا، ويجعل

خيالها دائماً أمامه نوراً يهتدى به فى طريقه، وحافزاً يدفعه إلى جلائل الأعمال ومحمود الفعال. يقول لها مرة:

سلى يا عبلَ قومك عن فعالى ومَنْ حضر الوقعة والطرادا
وردتُ الحربَ، والأبطال حولى تهز أكفُّها السُّمُر الصَّعادا
وخُضْتُ بمهجتي بحر المنايا ونارُ الحرب تتَّقَد انتقادا
وعدتُ مُخضَّباً بدم الأعداى وكرُّ الحرب قد خضَّب الجوادا^(١)

ويقول لها أخرى:

يا عبلَ لولا أن أراكِ بناظرى ما كنتُ ألقى كل صعب مُتَكِر
يا عبلَ كم من غمرة باشرتها بمُتَّقَف صلب القوائم أسمر
يا عبلَ هل بلغت يوماً أننى وليتُ منهزماً هزيمة مدبر
يا عبلَ دونك كلّ حى فاسألى إن كان عندك شبهة فى عنتر

فهو يفتخر ببطولاته وانتصاراته، ويقدمها مهراً لحبها، وقرباناً يتقرب به إليها، ويجعلها هى القوة الدافعة له إلى الأمام التى يقوم من أجلها بكل شئ، ويخوض فى سبيلها الغمرات والمخاطر، لعلها تعجب به، وترضى

(١) الوقعة : القتال، مفرد وقائع . والطراد: المطاردة، مصدر طارداً.
والسمر: الرماح. والصعاد: جمع صعدة وهى القناة المستوية، يريد بها الرماح.

عنه، ويلين له قلبها. وهو لا يطلب منها إلا أن تنظر إليه بعين الرضا،
وتراه على حقيقته، فهو بطل شجاع رهيب، خبير باصطياد الفرسان
الأشداء، مر الطعم إذا ظلم، أما إذا لم يُظلم فإنه لين الجانب، رقيق
الحاشية، لطيف المعاشرة، حسن المعاملة:

إن تُخد في دونى القناع، فإننى طبُّ بأخذ الفارس المُستلِّم
أثنى علىّ بما علمت، فإننى سمخ مخالفتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمتُ فإن ظلمى باسل مرُّ مذاقته كطعم العلقم^(١)

وتستطيع أن تسأل عنه من نشاء إذا لم تكن تعلم حقيقته، فالكل
يعرفونه، ويعرفون أخلاقه، ويعرفون إقدامه فى الحرب وعفته عند
توزيع الغنائم:

هلاً سألت القوم يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

(١) أغدفت القناع: أرخته على وجهها. طب: خبير حاذق. المستلِّم: الذى
يلبس الألة وهى الدرع. المخالقة: المعاملة، ويروى: مخالطى أى
معاشرتى.

فأرى مغائماً لو أشاء حَوَيْتُهَا فيصْدُنِي عنها الحيا وتكرَمِي

فهو رجل نبيل الخلق، عفيف النفس، كريم السجايا، وهو فوق ذلك كله
وفى لصاحبته، مخلص لها، لا ينظر إلى سواها، ولا يبغى غيرها، بل إنه
طَوَّع أمرها، ورهن إشارتها، يتمنى أن يكرس حياته وشجاعته لها، فيرد
عنها الأذى ويبسط عليها ظل حمايته، ولا يأتي من الأمور إلا ما يرضيها،
وهي تعرف عنه كل ذلك، فقيم الصدود والهجر؟

إنى امرؤ سَمَحَ الخليفة ماجد لا أَتْبَعُ النفس اللُّجُوجَ هواها
ولئن سألتَ بذلكَ عيلةً أخبرتَ أن لا أريدُ من النساءِ سواها
وأجيبها إما دعتْ لعظيمة وأعينها، وأكفَّ عما ساءها^(١)

وهو يعجب من هجرانها له بعد ذلك وصدها عنه، وكيف لا تبادله بحبه
العظيم الذي يحمله لها في قلبه حباً مثله، وكم من فتاة أجمل منها وأملح
تتمنى وصله وحبه، ولكن حبه لها غَشِيَ على بصره فتركه لا يفكر في أن
يصل حبله بغيرها. إنه يريد أن يستثير غيرتها الكامنة في أعماقها، بل في
أعماق كل حواء:

لا تُصْرِمْنِي يَا عَيْلَ، وراجعي في البصيرة نظرة المتأمل
فلربَّ أملحَ منك دَلاً فاعلمي وأقرّ في الدنيا لعين المجتلى

^(١) ساءها يعنى ساءها، خفت الهمزة ثم حذفت للضرورة.

وَصَلَّيْتُ حِبَالِي بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ مِنْ وَدْهَاءَ، وَأَنَا رَخِيُّ الْمَطُولِ
يَا عِبْلَ كَمْ مِنْ غَمْرَةٍ بِأَشْرُتِهَا بِالنَّفْسِ مَا كَادَتْ لَعْمُرُكَ تَنْجَلِي
فِيهَا لَوَامِخُ لَوْ رَأَيْتَ زُهَاءَهَا لَسَلَوْتُ بَعْدَ تَخَضُّبٍ وَتَكْهُلٍ^(١)

إنه يحبها ولا يغيب خيالها عن خاطره، حتى عند ما يشتد القتال،
وتحتدم الواقعة، ويحمى وطيس الحرب، وتأخذ الدماء تسيل من جراحه من
طعنات الرماح وضربات السيوف، فإن ذكرها تستبد به، وصورتها
تتراءى له، بل إنه يرى في كل وميض سيف شبحاً لا بتسامتها المشرقة،
فيتمنى لو استطاع تقبيل هذه السيوف التي تلمع كثرتها الباسم:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ، وَالرَّمَاحَ نَوَاهِلَ مَنَى، وَبَيْضُ الْهَنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السِّيُوفِ لِأَنَّهَُا لَمَعَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمَتَبَسِّمِ

وهو حب ظل يملأ عليه نفسه حتى آخر رمق من حياته، وظلت عبله
الحبيبة وخيالها وذكراياتها تلح عليه حتى وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، بل إن
الحرمان الذي كان يعيش فيه بعد زواجها هوّن عليه الحياة، وجعله يستقبل
الموت غير آسف على الحياة، ولا شيء يشغله إلا مصير عبله من بعده،

(١) المجتلى: الناظر. والمطول: الحبل، ويريد بقوله رخي المطول أنه لم
يصل حبله بها. والزهاء: الكثيرة.

وافتنقأها حمايته بعد أن يسدل الموت ستاره عليه، ويحول بينه وبين حماية
سيدته الأولى التي عاش لها، ومات وهو يذكرها:

فالقنلُ لى من بعد عبلة راحة والعيش بعد فراقها منكودُ
يا بعل قد دنت المنية فاندبى إن كان جفئك بالدموع وجود
يا بعل إن تبكى على فقد بكى صرغ الزمان على وهو حسود
يا بعل إن سفكوا دمي ففضائلى فى كل يوم ذكرهنّ جديد
لهفى عليك إذا بقيت سبيّة تدعين عنترَ وهو عنك بعيد

على هذه الصورة كانت قصص "المتيمين" فى العصر الجاهلى، وهى
صورة لا تكاد تختلف عن قصص "العذريين" فى العصر الإسلامى
والعصر الأموى. ومن الممكن أن تكون بعض التفاصيل فى هذه القصص
الجاهلية من وضع الرواة المتأخرين، تلبيةً لحاجات السمر والتسلية، أو
ادعاءً للعلم وسعة المعرفة، أو تقليداً لبعض التفاصيل فى قصص العذريين
الإسلاميين والأمويين، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن هذه القصص
فى مجموعها، من حيث إنها تمثل ظاهرة اجتماعية فى المجتمع الجاهلى،
لا يمكن أبداً أن تكون فى جملتها وتفصيلها من وضع هؤلاء الرواة تقليداً
لقصص العذريين بعد الإسلام. فالحب قديم قدم الحياة الإنسانية نفسها،
والحب العفيف الذى لا ينال العاشق فيه حظه من الحياة ليس وقفاً على
العرب وحدهم تون غيرهم من الشعوب، والحب العذرى فى صورته

الخاصة التى رأيناها فى البادية العربية بعد ظهور الإسلام ليست صورة خاصة بالعصر الأموى وحده، لأنها - فى وضعها الصحيح - صورة من الحب العفيف الذى تعرفه كل الشعوب، طبعتها بيئة البادية العربية بطوابعها المميزة، ولونتها طبيعة الحياة الاجتماعية فيها بألوانها الخاصة، فهى - كما قلنا - حب البادية العربية فى صورته الأصلية، خلقته تقاليدها ومثلها وظروف الحياة الطبيعية والاجتماعية فيها

وفى شعر العذريين الأمويين - بعد ذلك - إشارات غير قليلة إلى هؤلاء المتيمين الجاهليين ومن امتد بهم الأجل إلى ما بعد ظهور الإسلام الذين كانوا يرون فيهم 'مثلاً' يتأسون بها فى الرضا بالحرمان، والصبر على آلام الوجد وتباريح الصباية، والاستسلام لهذا القدر المقدور الذى قضاه الله عليهم . يقول قيس بن ذريح:

وفى عروة العذرى إن مت أسوةً وعمر بن عجلان الذى قتلت هندُ
وبى مثل ما ماتا به غير أنسى إلى أجل لم يأتنى وقتُه بَعْدُ

ويقول أيضاً، وتنسب لجميل ولقيس بن الملوّح:

وما وَجَدْتُ وحدى بها أم واحد ولا وَجَدَ النهْدُ وحدى على هِنْدِ
ولا وجد العذرى عروة إذ قَضَى كوجدى، ولا من كان قبلى ولا بعدى

ويقول جميل:

وعاذلون لَحَوْنِي فِي مودتها يا ليتهم وجدوا مثل الذى أجِدُ
لما أطالوا عتابي فيك قلت لهم: لا تفرطوا، بعض هذا اللوم، واقتصادوا
قد مات قبلى أخو نَهْد، وصاحبه مرقش، واشتفى من عروّة الكَمَدُ
وكلهم كان من عشق منيَّته وقد وجدتُ بها فوق الذى وجدوا
إني لأرهبُ، أو قد كدتُ أعلمه أن سوف تُورِدنى الحوض الذى وجدوا
إن لم تتلنى بمعروف تجود به أو يَدفع الله عني الواحدُ الصَمَدُ

فقضية المتيمين الجاهليين والإسلاميين ثابتة بشهادة العذريين الأمويين أنفسهم، وثبوت هذه القضية ينتهى بنا إلى نتيجة لا شك فيها، أو- بعبارة أصحاب القضاء- إلى حكم لا يقبل النقض، وهو أن الحب العذرى ليس ثمرة للحياة الأموية ، وليس له من هذه الحياة سوى اسمه فقط ، وإنما هو قديم منذ العصر الجاهلى، وثمره للحياة الاجتماعية فى هذا العصر.

كان المجتمع الجاهلى مجتماً قَبَلِيّاً، يقوم على اساس من وحدة القبيلة، سواء فى البادية أو فى المدن. ولم تكن حياة القبيلة فى هذا المجتمع حياة معقدة، وإنما كانت حياة بسيطة قليلة الأعباء والتكاليف، فهى حياة تعتمد أساسياً على الرعى والصيد والغزو، تتخللها فترات فراغ تطول فى البادية حيث تعتمد الحياة على الطبيعة، ويقضى البدو أوقاتاً طويلة فى انتظار ما

تجود به السماء عليهم من أسباب الحياة، حتى إذا ما اخضرت الأرض، وانتشرت المراعى، وانتجع البدو مواقع الغيث ومنايب الكلا، عادوا مرة أخرى إلى فراغهم الطويل، وتقصر هذه الفترات فى المدن حيث تعتمد الحياة على الجهد الشخصى، وبصبح الوقت عنصراً له أهميته الكبيرة فى الحياة.

وقد استطاع الجاهليون أن يحلوا مشكلة الفراغ عندهم بثلاثة أشياء: الخروج إلى الصحراء للرحلة أو الصيد، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر أو لعب الميسر، والسعى خلف المرأة طالباً للهو والمتعة أو للحب والغزل. ولكن هذا الباب الأخير لم يكن مفتوحاً لهم على مصراعيه بسبب التقاليد الصارمة التى كانت تفرض سلطانها على المجتمع القبلى، وتأخذ فيه شكل المقدسات التى لا يمكن التحلل منها. وكان "الشرف" أحد هذه التقاليد المقدسة، فلم يكن من اليسير على طلاب اللهو والمتعة أن يعيثوا فى المجتمع القبلى كيف يشاءون، والمجتمع يقف منهم موقف المتفرج، كما هو الشأن فى المجتمعات المتحضرة، وإنما كانت المسألة مسألة حساسة شديدة الخطر، لأن العربى كان ينظر إلى المرأة على أنها حُرمة من الحرّمات، عليه واجب المحافظة عليها، والدفاع عنها، وبحق سموها "حرمة"، وبحق قالوا "كل امرئ يَذْبُ عن حريمه". ومن

هنا كثر الحديث عند شعراء الغزل اللاهى من أمثال امرئ القيس عن الدبيب، ومخاطلة الأحراس، وزيارة المحبوبة فى وقت متأخر من الليل عند ما يهجع الرقباء وينام الأهل، والخروج بها إلى الأماكن النائية فى أعماق الصحراء بعيداً عن الحى، وتعفية آثار الأقدام على الرمال حتى لا يهتدى أحد إلى أماكن اللقاء. ومن هنا أيضاً أخذ القصص الغرامية عند هؤلاء الشعراء صورة المغامرة والمخاطرة التى تستدعى اصطحاب السيوف وحمل الأقواس والسهام. فلم تكن العربية فى هذا المجتمع مجالاً للهو السافر الصريح، وإنما كان مجال هذا اللهو إحدى اثنتين: الأمة التى لم يكن العربى ينظر إليها بعين القداسة التى كان ينظر بها إلى العربية الحرة، والقينة التى لم تكن تتمتع بتلك الحصانة التى كانت العربية تتمتع بها، والتى كانت تحترف فى هذا المجتمع الغناء والمنادمة على الشراب، وكلتا الاثنتين أجنبية غير عربية، فلم يقف المجتمع فى وجه من يريد اللهو بهما أو العبث معهما، ولم يأخذ قصص الشعراء عنهما صورة المغامرات الحذرة أو الجريئة، وإنما أخذ صورة " الباب المفتوح " لكل طارق، على نحو ما نرى فى شعر الأعشى مثلاً.

ومعنى هذا أن السبيل إلى العربية الحرة بنت القبيلة لم يكن مسيراً لأصحاب اللهو والمتعة، وإنما كان محفوظاً بالأهوال والأخطار، بل كان فى أكثر الأحيان مغلقاً فى وجوههم. ومن هنا كثر فى الغزل القديم الحديث عن المحبوبة الممنّعة المحبّبة، أو المحبوبة التى لا يصل إليها العاشق ولا ينالها، كما كثر أحاديث الحنين والشوق والحرمان والدموع والشكوى الحزينة اليائسة، وهى كلها أحاديث تعكس صورة صادقة للحياة العاطفية التى كان يحياها أبناء هذا المجتمع.

وطبيعى أن أى مجتمع مهما تكن صرامة تقاليده لا يستطيع أن يلغى من نفوس البشر عواطفهم، أو يمنع التيار العاطفى الجارى فى عروقهم من الجريان، ولكنه يستطيع أن يحد من نشاطه وتدفعه، أو يحول مجراه، أو يتحكم فيه وينظمه. ولم يكن المجتمع الجاهلى بذعاً يبين المجتمعات البشرية، فوقف فى وجه هذا التيار يحد من نشاطه اللاهى، ويحول مجراه إلى مجرى صافى نقى لا تكثر فيه الأعشاب ولا الأوحال، وإن كثر فيه السدود الصناعية التى تخفف من سرعة التيار وشدة اندفاعه.

فى هذا المجرى الصافى النقى بما فيه من سدود صناعية انطلقت عواطف الشباب فى هذا المجتمع، فظهر الحب العفيف الطاهر الذى كانت القبائل تراه متنفساً طبيعياً لشبابها، وإن تكن لا

تشجع عليه ولا تباركه، وهو حب كان بعض الشباب- لأسباب شتى أهمها المزاج الشخصى- يبالغون فيه، ويفرغون له، ويمنحونه كل طاقتهم العاطفية، ويفسحون له المجال فى قلوبهم ليحتلها ويسيطر عليها ويستبد بها، حتى يصبح شغلهم الشاغل فى الحياة، بل حتى يصبح هو الحياة نفسها، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الرواة اسم "المتيمين" وقالوا إن الحب قتلهم، وهم الذين نراهم الطليعة المبكرة للحب العذرى كما عرفه مجتمع البادية العربية بعد الإسلام.

ظهر "المتيمون" فى العصر الجاهلى فى كلتا البيئتين:

بيئة البادية، وبيئة المدن، كما ظهر فيهما أيضاً الاتجاه الحسى اللاهى، أما بعد ظهور الإسلام مع استقرار الأمر لبنى أمية فقد تغيرت مراكز الحب عنها فى العصر الجاهلى، فانهصر الحب العفيف فى البادية، وانهصر الحب اللاهى فى المدن وخاصة مدن الحجاز، أو- بعبارة أدق- أصبح الحب العفيف اللون السائد فى بيئة البادية، واصبح الحب اللاهى اللون السائد فى بيئة المدن الحجازية.

فقد عملت عوامل متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية على أن تتحول مدن الحجاز فى العصر الأموى إلى مدن على حظ كبير من الحضارة، فانتشرت فيها العناصر الأجنبية بمزاجها الحضارى

الأجنبي، وارتفعت فيها موجة عالية من الغناء والموسيقا واللهو، وتدفقت في حجور أبنائها الأموال والثروات، فأخذت حياة القبائل العربية بها تتحول إلى حياة متحضرة مترفة بل ممعنة في التضرر والتزلف، وهيات ظروف البيئة الجديدة، وما تتطوى عليه من حضارة وترف وغنى وفراغ، اظهور مدرسة الحب اللاهية، أو- بعبارة أدق - هيات لهذه المدرسة أن تحتل مكان الصدارة في هذا المجتمع الجديد.

في هذا الوقت الذي كانت مدن الحجاز تتحول فيه هذا التحول الحضاري السريع، كانت البادية العربية تعيش في عزلة نسبية توشك أن تكون امتداداً لعزلتها القديمة في العصر الجاهلي، مع تطور لم يكن منه بد في بعض جوانب الحياة كان استجابة لظهور الإسلام وانتشاره فيها. فقد انتشر الإسلام فيها كما انتشر في سائر أرجاء الجزيرة العربية، واعتنق أهلها الدين الجديد كما اعتنقه سائر العرب، وخرجوا مجاهدين في سبيل الله كما خرج إخوانهم من سكان المدن.

وكان طبعاً أن يغير الإسلام من نفوس هؤلاء البدو، ومن مثلهم الخلقية، كما غير من نفوس غيرهم من سكان المدن ومن مثلهم الخلقية، فقد خلصهم من روح الجاهلية القديمة، وهذب من نفوسهم، وأضفى عليها مثاليته

الخلفية، وحثهم على التمسك بأهـداب الفضيلة والعفة ومكارم الأخلاق، وأخذهم بشيء من الشدة فى معاملة النفس، وشيء من الرقة والإحسان فى معاملة المرأة حين حفظ عليها إنسانيتها، ورفع من وضعها الاجتماعى والاقتصادى، ونظم ما بينها وبين الرجل من علاقات وبين مالها وما عليها من حقوق وواجبات. ومع ذلك ظلت حياة البدو الاجتماعية فى كثير من جوانبها كما كانت فى العصر الجاهلى، فقد ظلت القبيلة وحدة المجتمع، وظلت حياة الطعن والتنقل والنُّجعة الطابع العام له والأسلوب الأساسى للعيش فيه، وظلت التقاليد القديمة والعُرف الموروث تتمتع بالقداـسة والاحترام للذين كانت تتمتع بهما فى العصر القديم، وظلت البادية كما كانت من قبل فى عزلة نسبية عن التيارات التى كانت تندفع إلى جوارها فى مدن الحجاز، وفى عزلة أكثر من نسبية عن التيارات السياسية التى كانت تصطبـخ من حولها فى الشام والعراق.

ومعنى هذا أن مجتمع البادية فى هذا العصر تخلص من شيئين: من روح الجاهلية القديمة فى حياته الدينية والخلقية، ومن روح العصر الجديد فى حياته الاجتماعية والسياسية، فخلص له شيئان: الروح الإسلامى الجديد فى بعض جوانب حياته، وروح البداوة الموروث فى بعضها الآخر.

ومن هنا كان طبيعياً أن تختفى مدرسة الحب الحسى اللاهى القديمة التى مثلها امرؤ القيس والأعشى وأضرابهما، كما كان طبيعياً أيضاً أن لا تظهر مدرسة الحب الحجازية الجديدة التى مثلها عمر بن أبى ربيعة ومن سار سيرته، لأن العوامل التى هيأت أسباب الظهور للمدرسة القديمة قد اختلفت من المجتمع البدوى الجديد، والعوامل التى خلقت المدرسة الجديدة لم تتوافر له كما توافرت لمجتمع المدن الحجازية.

اختلفت العوامل التى هيأت للمدرسة القديمة الظهور حين نظم الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة من ناحية، وحين رفع من منزلة المرأة الاجتماعية فحفظ عليها كيانها الخلقى والنفسى من ناحية ثانية، ثم حين قضى على كثير من مظهر اللهو الجاهلية بتحريم الخمر والميسر والعلاقات غير المشروعة التى كانت تعد متع الحياة الجاهلية الأساسية من ناحية ثالثة. وفى الجانب الآخر لم تتوافر للمجتمع البدوى الجديد العوامل التى توافرت لمجتمع المدن الحجازية الجديد، فقد ظل هذا المجتمع محتفظاً بطابعه البدوى القديم، وتقاليده الاجتماعية الموروثة، كما ظل - من الناحية الاقتصادية - مجتمعاً رعوياً كما كان فى العصر القديم، تعتمد الحياة فيه على الرعى، وتسيطر على مستواه الاقتصادى الظروف الطبيعية التى لا يملك لها تغييراً. ثم إلى جانب ذلك ظل - بحكم عزله التقليدية التى فرضتها عليه البيئة الجغرافية، وبحكم بعده عن الحكومة المركزية فى المدينة أولاً

ثم فى دمشق بعد ذلك- بمنأى عن الحياة الرسمية فى
والحجاز، وماتتطوى عليه من نشاط سياسى فى الشام، وكبت سياس
الحجاز، كما ظل بمنأى عن الاضطراب الثورى العنيف فى العراق.

وكان طبيعياً بعد هذا كله أن تظل مدرسة الحب العفيف القديم
مثلاً "المتيمين" المدرسة الأساسية للحب فى المجتمع البدوى، بل
طبيعياً أن يتسع مجالها ويمتد نطاقها فتصبح اللون البارز الزاهى من
الحب فى هذا المجتمع، والسمة المميزة لأية علاقة عاطفية بين
والمرأة فيه، لأن هذا اللون من الحب أصبح المتعة الأساسية للشباب
ينفسون به عما يعانون من كبت وحرمان، ويستعوضون به عما حُرّم
وسائل اللهو القديمة التى حال بينهم وبينها الإسلام، ويحققون به وه
الضائع فى هذه الصحراء المترامية الأطراف، دون أن يمس هذا
الجديد الذى آمنوا به، ولا تقاليدهم البدوية الموروثة التى ظلوا متمسك
رغم كل شيء.

ومن هنا كنا نرى أن ظهور مدرسة "العذريين" فى العصر الأم
يكن بالظاهرة الغريبة التى تستدعى البحث عن اسبابها، فهى- فى و
الصحيح- امتداد لمدرسة "المتيمين" القديمة، أو- بعبارة أخرى- بعث
المدرسة فى ثوب إسلامى، وهو امتداد أو بعث طبيعى لأنها هى الم
الطبيعية التى لم يكن هناك بد من ظهورها فى المجتمع البدوى الجديد

هذا الكتاب

* يعد محاولة لإزالة وهم استقرار في أذهان كثير من الباحثين حول الحب العذري باعتباره ظاهرة أموية خالصة منبثة إلى زمانها تماماً مما قبلها.

* ومن ثم فهو يطرح إلى كشف طبيعة حب البادية العربية في جميع عصورها، فهو نبت صحراوي أصيل عرفته البادية، وظلت ترعاه، وتمد له في الأسباب حتى نما وازدهر في ظل بنى أمية.

* وهو يناقش قضية الأسطورة التي تعمقت أخبار هذا الحب اندفاعاً خلف مذهب الشك في كل ما يتصل بتراثنا الأدبي العريق.

عبد غريب